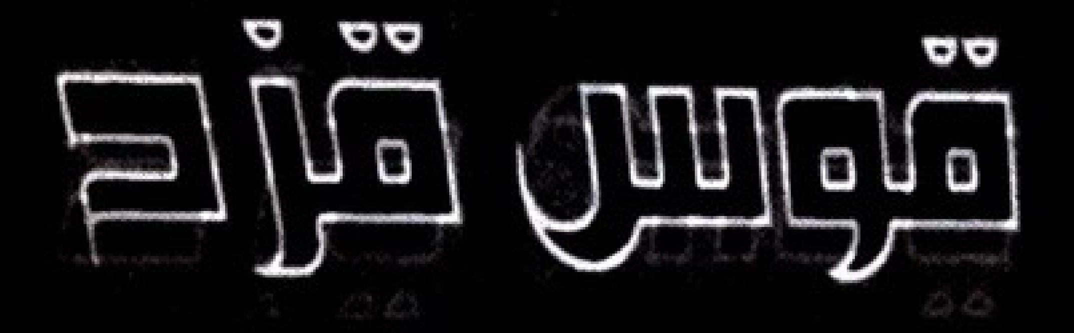
كيف تصير الألوان مرعبة أو -على أقل تقدير- ليست كما وجدت في خيالات طفولتنا..



قوس قزح



د. أحمد خالد توفيق
د. تامر إبراهيم

قوس قزح

أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلي.. بنفسجي.

إنه قوس قزح..

لا حقائق ولا مسلمات.. إنما هو الضوء يمارس خدعته السرمدية في شبكيات عيوننا..

الأبيض لا وجود له؛ بل هو سبعة الألوان وقد جاءت معًا.. الأسود لا وجود له؛ إنما هو سبعة الألوان وقد غابت معًا..

تدنو من الشيء أو الشخص أو الحقيقة؛ فتدرك أنه ليس واحدًا.. وأن التجانس المزعوم وهم.. هناك حقيقتان.. ثلاث حقائق.. ربما سبع.. ربما لا حقيقة على الإطلاق!..

أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلي.. بنفسجي.

إنه قوس قزح..

الهواء مبتل قشيب اغتسل بالأمطار لتوه، وعند طرف قوس قزح تجد قدرَ الذهب الذي دفنه القزم.. كذا قالوا في الأساطير.. تجد السعادة.. تجد الحقيقة..

أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلي.. بنفسجي.

اليوم نحكي لك كيف أن قوس القزح قد يكون مخيفًا..

كيف تصير الألوان مرعبة أو -على أقل تقدير- ليست كما وجدت في خيالات طفولتنا..

أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلي.. بنفسجي.

قوس قزح ..

وسبع قصص تحكي عن الألوان..

سبع حكايات عن قوس قزح..

كانت الفكرة والمقدمة للدكتور (أحمد خالد توفيق).. وبعد هذا اختار أحد المؤلفين أن يكتب عن ثلاثة ألوان واختار الآخر أربعة.

فمن اختار ماذا؟..

سنترك السؤال معلقًا.. فهل تجيب عنه أنت؟..

* * *

د. أحمد خالد توفيق

د. تامر إبراهيم

أحمر

يقول السيد (منير) وهو يلفظ الدخان من غليونه:

"اللون الأحمر يا بني هو أهم ألوان الطيف وأكثرها عمقًا وتأثيرًا.. إنه لون الدم.. لون الحب.. لون الزهور.. لون الفجر والغروب.. والأهم من هذا كله أنه لونهم!!"

❁ ❁ ❁

وكان المقطم هو المكان الأمثل؛ لما انتوينا فعله..

دائمًا ما تصلح فيلات المقطم في تنفيذ أي مخطط.. وهذه قاعدة مطلقة..

لا بد أن يستنسخوا البشر ويصنعوا المخدرات ويأكلوا الموتى ويشربوا الدماء في هذه الفيلات..

على كل حال أنا ذاهب لما هو أسوأ..!!

السيد(منير) هو من أيقظني ليخبرني أنها الليلة الموعودة، فلم أكد أصدق نفسي وأنا أقفز في سيارتي لأنطلق إلى هنا.. إنها الليلة الموعودة، ولكم طال الانتظار..

أوقفتُ سيارتي أمام تلك الفيلا التي تبدو مهجورة لمن يراها من الخارج، وجلست لحظة لأملأ جسدي بدفء السيارة، قبل أن أخرج إلى حيث تضربني الرياح بلا هوادة، بأسهم من الثلج..

ومن حقيبة السيارة أخرجتُ تلك الحقيبة الجلدية الضخمة، لأحملها بنوع من المشقة متجهًا إلى مدخل الفيلا..

إنني أتذكر.. ثلاث طُرقات ثم طُرْقَتين متباعدتين، ثم هأنذا أنتظر حتى يفتح الباب، ليستقبلني السيد (منير) بدخان غليونه..

أنا لم أر هذا الرجل إلا وهو يدخن الغليون، وإنني لأتساءل عن الكيفية التي يبقى معها غليونه مشتعلاً طيلة الوقت.. أحيانًا أشعر أنه ينفث لهبًا من فمه في هذا الغليون!

كان عمليًا كدأبي به، فاستقبلني قائلاً:

– "هل أحضرت المطلوب؟!"

دققت على حقيبتي الجلدية، وأنا أومئ برأسي إيجابًا، فأفسح لي الطريق، لأعود إلى دفء الأماكن المغلقة.. وفي الداخل كان الباقون في انتظاري..

السيد (علاء) بقامته الضئيلة وجسده المكتنز، والسيد (رضا) بنظراته العصبية المتوترة، والسيد (فهمي) بملامحه الأرستقراطية الجامدة..

حيّوني بهزّ الرأس، فاتخذتُ مكاني جوارهم، حتى أتى السيد (منير) وهو يمرر أصابعه في خصلات شعره الأشيب، ليقول بذات العملية والغليون مدلى من فمه:

– "سيبدأ حالاً، لذا على من يريد التراجع أن يُعلمنا من الآن.."

لم يتلق ردًا، فنفث المزيد من الدخان واتجه إلى باب إحدى الغرف، قائلاً بحيادية:

– "اتبعوني رجاء.."

وهكذا تبعناه صاغرين إلى الغرفة التي لم نكد نراها؛ حتى بدت الدهشة في ملامحنا، وإن لم يجرؤ أحدنا على النطق بحرف..

على الأرض رُسمت النجمة الخماسية الشهيرة، وقد استقرت خمسة مقاعد عند أطراف النجمة، بينما استقر ذلك الشيء عند مركز الدائرة، لنشعر أنه يجثم على صدورنا بلا رحمة..

أقول هذا الشيء لأننا لم نعرف له اسمًا وإن كنا قد اتفقنا فيما بيننا على تسميته (لوح الحقيقة)..

كان يبدو كلوح حجري مصمت، استقرت في طرفه بلورةٌ زجاجيةٌ شديدة الشفافية، وعلى اللوح نفسه حُفر فراغٌ لا يحتاج المرء لأن يكون خبيرًا، ليعرف أنه مصمم بحيث يستلقي جسدٌ في هذا التجويف.. جسدٌ آدمي!..

استقر(فهمي) و(رضا) و(علاء) في مقاعدهم وملامحهم تنضح بالانفعال، بينما ظللت أنا واقفًا حاملاً حقيبتي الضخمة، منتظرًا إشارة السيد (منير)

الذي أومأ لي برأسه موافقًا، فوضعت الحقيبة على الأرض بحرص، ونزلت على ركبتي لأفتحها..

واستقبلني ثلاث شهقات من السادة الجالسين، وأنا أخرج من الحقيبة جسد ذلك الطفل، الذي بدا واضحًا من شحوب جسده، وتلك الدماء الجافة على رأسه؛ أنه مات منذ زمن، وأن جثته كانت محفوظةً لفترة طويلة، مما حال أن تبدأ في التحلل..

وحده السيد (منير) الذي ظلت ملامحه جامدة وأنا أسجي الجسد الضئيل في التجويف، قبل أن أتخذ مقعدي عند أحد أطراف النجمة الخماسية، تلاحقني نظرات السادة الجالسين غير المصدقة..

وبتؤدة جلس السيد (منير)، وظل صامتًا لدقيقة كاملة، كأنما يمنحنا الفرصة لنستعد، قبل أن يبدأ في نفث الدخان والكلام في وجوهنا:

– "أنتم تعرفون ما نحن مقدمون عليه أيها السادة، لكن دعوني أنعش ذاكرتكم.. نحن هنا لنستخدم لوح الحقيقة، الذي ظل لغزًا لكل الباحثين والمؤرخين على مرّ الزمان.."

كنت أعرف ما سيقوله بالضبط، لذا غبت في حالة الشرود، وعيناي معلقتان على جثة الطفل الساكنة، والتي لولا الدماء الجافة التي غطت وجهه، لظننت أنه نائم وسيستيقظ في أية لحظة..

لكنه لن يستيقظ..

أنا أعرف هذا وأثق فيه بحكم كوني طبيبًا.. حادث سيارة أدى إلى شرخ في الجمجمة وتهتك في خلايا المخ.. موت سريع لكنه غير نظيف، مع كل الدماء التي فقدها الطفل، ووالداه المذعوران يحملانه إلى المستشفى، علّنا نحن الأطباء نأتيَ بمعجزة ما، تعيد الحياة إلى جسده الضئيل..

لكن الحقيقة كانت جلية أمام أعيننا ومنذ اللحظة الأولى.. هذه حالة منتهية، وكل ما علينا فعله هو تهدئة والديه الموشكين على الجنون هلعًا..

– " لوح الحقيقة صنعه السحرة في العصور الغابرة، والغرض منه استدعاء كيان ما غير محدد الهوية، هذا الكيان يحتل الجثة التي توضع في تجويف اللوح.."

حين كنت طالبًا في كلية الطب، أخبرنا أحد الأساتذة، أن أقسى لحظة ستمر بها، حين تخبر أهل المريض بوفاته.. ستتعرض إلى عاصفة من الهلع والاستنكار وعدم التصديق، لكنك مع الوقت ستعتاد هذه المهمة الشاقة، وستؤديها بصفة روتينية..

أنا اعتدت هذه المهمة الشاقة، بل ووصلت إلى الدرجة التي انتظرت فيها خروج والدي الطفل وهما في حالة انهيار تام، لأحمل جثة طفلهما في حقيبة مليئة بالثلج، لأنقلها إلى ثلاجة معدّة خصيصًا لهذا الغرض في داري،

انتظارا لليلة الموعودة..

"حين يحتلّ هذا الكيان الجسدُ الراقدُ على اللوح، يحركه وينطق عن طريقه.. الميت لا يعود للحياة، لكن هذا الكيان يستحوذ على جسده ويسخره له.. ونحن نسخره لنا ليخبرنا بالحقيقة.."

بالطبع لم يمرّ اختفاء جثة الطفل من المستشفى مرّ الكرام.. كان هناك صراخ والديه، وتحقيقات واتهامات وأخبار في الصحف وفي نهاية الأمر.. لا شيء!

تم اعتبار أن الطفل دفن بهوية مختلفة عن طريق الخطأ، وتلقى والداه تعويضًا محترمًا سيساعدهما على إنجاب طفلٍ آخر، وظَلت أنا بمنأى عن أي شك..

ما الذي سيدفع طبيبًا محترمًا مثلي إلى سرقة جثة طفل؟!!

– "الحقيقة هي ما سنحصل علية الليلة.. حقيقة الماضي وحقيقة المستقبل.. سؤال واحد لكل منا قد يفتح له أبواب المجد والثراء وقد ينقذ حياته لو كانت ساعته قد أوشكت.. لذا اختاروا أسئلتكم بحرص شديد"

كانت هذه هي اللحظة التي تبادلنا فيها النظرات..

سؤال واحد لكل منا.. تُرى أي سؤال ستختاره لو كنت مكاني؟!

فكر جيدًا.. فإجابة سؤالك، وكما قال السيد (منير) قد تفتح لك

أبوابَ الثراء، وقد تنقذ حياتك لو كانت ساعتك أوشكت..

أنا أعرف عن ماذا سأسأل، وسؤالي أيها السادة سيُدرُّ عليّ الملايين.. ملايين زوجتي الراحلة!

تلك اللعينة أخفت عني ثروتها قبل أن تموت، بعد أن أدركت أن هذا سبب زواجي منها في المقام الأول..

تلك الحمقاء!!.. لماذا تظن أنني تزوجتها إذن؟!!

أي شاب يتزوج امرأة يتجاوز عمرها ضعف عمره، هدفه واضح وصريح وإن أنكر الجميع هذا..

لا مكان للعواطف أو لعقدة (أوديب) هنا.. إنني (انديانا جونز) الباحث عن الثروة، وتلك الحمقاء تملك الكثير..

بل الكثير جدًا..

قطع السيد (علاء) حبل أفكارنا، بسؤالٍ ساذج:

– "سؤال واحد؟!.. فقط؟!!"

أومأ السيد (منير) برأسه إيجابًا، ثم واصل بث الشرح ونفث الدخان:

– "ثمة شيء آخر يجب أن تحذروا منه.. هذا اللوح يفتح الباب بين عالمنا وبين عالم آخر لا يعلم إلا الله ما الذي يوجد فيه.. لذا فهذه البلورة

الزجاجية ستكون بمثابة جهاز الإنذار لنا.. حين تتألق البلورة باللون الأخضر سيعني هذا أن الاتصال بيننا وبين العالم الآخر قد نجح.. وحين تتألق باللون الأزرق سيعني هذا أن الكيان الذي سيجيب على أسئلتنا قد حضر.."

ثم ابتلع ريقه، ليضيف:

– "المشكلة ستكون حين تتألق البلورة باللون الأحمر، ففي هذه الحالة يعنى هذا أنهم حضروا.. اللون الأحمر هو لونهم.."

جاء دور (رضا) ليهتف بعصبية:

– "من هم بالضبط؟!.. لست أفهم شيئًا من هذا الكلام المُلغَز.."

أخذ السيد (منير) يعبث في غليونه، وهو يجيب:

– "كما قلت آنفًا، لا يعلم إلا الله ما يحويه هذا العالم الآخر.. لكن اللون الأحمر يعني حضور أسوأ ما في هذا العالم وأشده خطورة.. لو تألقت هذه البلورة باللون الأحمر فسيعني هذا أن فرصتنا في النجاة من هذه التجربة ضئيلة، لذا أكرر.. من يرد الانسحاب فليتفضل مشكورًا من الآن، فلا مجال للتراجع إذا بدأنا.."

ألجم الصمت الذي حلّ على المكان ألسنة الجميع، فعدت إلى خواطري المضطربة..

زوجتي بدأت تفهم الحقيقة منذ عام واحد تقريبًا.. كانت مسنة لكنها

امرأة، لذا كانت تفهم معنى تأخري الدائم عن المنزل ومعنى تلك الاتصالات الغامضة، التي يغلق أصحابها الخط في وجهها إن ردت هي...

هناك أخرى.. وربما أكثر من واحدة.. وهذه هي الحقيقة!!

وحين واجهتني، كنت قد سأمت بقاءها على الحياة حتى هذا الوقت؛ لذا صارحتها بالحقيقة ببرود وقسوة، علّ الصدمة تحقق لي هدفي في ميراث سريع ومضمون..

لكنها –اللعينة– تلقتْ الصدمة بالهستريا والدموع وبإخفاء ثروتها عني حتى لفظت أنفاسها في أحد الليالي وهي تنعتني بأقذع الألفاظ..

ما لم تعرفه هي حتى النهاية، أن وفاتها لم تكن طبيعية.. لم تكن كذلك قط!!

– "هل سنبدأ أم ماذا؟!"

قالها السيد (منير)هذه المرة، ليجيبه صمتنا بالإيجاب، فقال:

– "ليخرج الكل الأوراق التي وزعتها عليكم.."

أخرجتُ تلك الورقة المطوية من جيب معطفي، وفضضتها لتجري عيناي على تلك الأسطر اللاتينية التي كتبها السيد (منير) بخطه الأنيق المنمق..

لست أفهم حرفًا مما أمامي الآن.. لقد شرح لنا السيد (منير) المعنى من قبل، لكنني نسيته.. على كل حال إنها ليست قصيدة شعر، ولا ينبغي عليّ أن أقرأ من القلب!!

عبث السيد (منير) بأحد الأزرار في الحائط وراءه، فانخفضت الإضاءة في الغرفة للحد الذي أصبحنا فيه نرَ بعضنا البعض بالكاد، ثم وضع غليونه – أخيرًا – جانبًا، لنبدأ في ترديد التعويذة..

"ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس"

كلمات كتبها السحرة في العصور الغابرة، ترددها حناجرنا المرتجفة، وأعيننا معلقة على جثة الطفل وعلى البلورة الزجاجية..

"ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس"

تتألق البلورة باللون الأخضر لنعرف أننا على الطريق الصحيح، فأثبت عيني على وجه الطفل الملطخ بالدماء الجافة منتظرًا لحظة الحقيقة..

"ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس"

اللون الأخضر يزداد تألقًا ثم يتحول إلى الأزرق الشاحب البارد، ليضفي على جلستنا الرهيبة هذه مذاقًا خاصًا..

"ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس"

الآن تحدث المعجزة، ونرى بأعيننا المتسعة ذهولاً ووجلاً، تلك الرجفة التي تمر على جفنيْ الطفل، ثم نراه يفتح عينيه ببطء؛ لتحدق الجثة بعينين لا تريان في سقف الغرفة..

كان (علاء) يرتجف هلعًا.. و(رضا) يرتجف انفعالاً.. و(فهمي) يجاهد للحفاظ على تماسكه، بينما تبدت اللهفة في عينيّ السيد (منير)، وهو يرى الاتصال يتم بنجاح..

" ما نياس.. ركاكس.. تينوس.. ما ساسيس"

الآن تتحول البلورة إلى اللون الأزرق.. والآن أتذكر كيف قررت ذات يوم أن أنهي حياة زوجتي التعسة بيديّ، ما دامتْ تصرّ على البقاء حية..

خبرتي كطبيب كانت تعني أن التنفيذ سيكون سهلاً، لكن الصعوبة تكمن في اتخاذ القرار ذاته..

صحيح أنني كنت أكره تلك العجوز الشمطاء من أعمق أعماق قلبي، لكن أن أراها تموت كل يوم بتأثير ذلك السم البطيء الذي كنت أدسه بانتظام في دوائها، كان تعذيبًا حقيقيًا لأعصابي..

كنت أراها.. تضعف.. تنهار.. تذوي.. تتلاشى..

ولقد كانت هي تشعر أنني السبب في هذا كله!!

– من سيبدأ؟!!

قالها (علاء) بصوت مرتجف، فأجابه السيد (منير) على الفور:

– "لا فارق.. ابدأ أنت.."

احتشدتْ قطرات العرق في جبهة السيد (علاء)، ونطق بصوت مختنق انتزعه من حلقه انتزاعًا:

– "سؤالي هو... هو... هل توجد طريقة كي لا أموت؟!!"

ها هو ذا أول سؤال للوح الحقيقة يبحث عن سر الخلود..

وكأنما يدفع السيد (علاء) هذا الاتهام عن نفسه، قال دون أن ينظر لأحدنا:

– "إنني أموت.. تليف في الكبد..."

بالطبع كان هذا كافيًا لي لأفهم.. تليف الكبد الناتج من الإسراف في شرب الكحوليات.. لا علاج له.. !!

تعلقت أعين الجميع على وجه الطفل الذي ظل ساكنًا كأي جثة، ثم وببطء شديد فتح الطفل فمه ليزوم..

يزوم بصوتٍ ثابت عميق لا يمكن أن يصدر عن طفل بأي حال من الأحوال..

وبتوتر هتف السيد (رضا):

– ما هذا..؟!

لكن السيد (منير) أخرسه بإشارة من يديه، لتظل الكرة في ملعب جثة الطفل..

الطفل الذي أخذ يزوم بصوت غير بشري..

صوت قادم من العالم الآخر!!

كنت خائفًا وهذا ما لا يمكنني إنكاره.. ما يحدث الآن يفوق قدرتي على الاستيعاب، والسبب واضح وصريح..

هذا الطفل ميت.. جثة هامدة لا حياة فيها من أي نوع، فأي كيان هذا الذي يستخدمها ليزوم؟!

استمر هذا الصوت الرهيب المنبعث من الطفل طويلاً، فاقترح السيد (فهمي):

- "هل.. هل نجرب سؤالاً آخر؟!"

- "لم لا؟!"

- "إذن، فسؤالي هو... هل... هل..."

و لسبب ما بدأت ملامح الأرستقراطية الجامدة ترتجف، ورأيته – لأول مرة منذ عرفته – يتلعثم وهو يمسح قطرات عرق وهمية عن جبينه، بمنديل حريري فاخر، ليخرج سؤاله:

- "هل.. تخونني زوجتي حقًا؟!"

تبدت الصدمة في ملامح الجميع، إلا أنني شعرت بحنق بالغ وأنا أتساءل في أعماقي إن كان هؤلاء الحمقى يفهمون الغرض من هذه التجربة حقًا..

الأول يسأل عن علاج لمرضه والآخر يسأل إن كانت زوجته تخونه.. لهذا جئنا بلوح الحقيقة والجثة وقمنا بالمخاطرة في هذه التجربة المخيفة؟.. من أجل الهراء ذاته!

على كل حال استمر الزوم المخيف المنبعث من جثة الطفل دون أن يجيب على هذا السؤال أيضًا، فعلقت نظراتنا الحائرة على وجه السيد (منير) الذي أشار لنا بيده إشارة أنه لا يفهم ما الذي يحدث بالضبط..

و دون أن أستاذن، ألقيت بسؤالي علّه يجذب اهتمام الكيان الذي يسطر على جثة الطفل:

-"أين أخفت زوجتي ثروتها؟!"

الطفل يزوم بلا انقطاع كأنه يسخر منا!..

و لم تحتمل أعصاب (رضا) كل هذا الاستفزاز، فهب من على مقعده صائحًا:

- "ما هذا العبث؟!.. هل سيجيب هذا الوغد عن أسئلتنا أم ماذا؟!"

أثار تصرفه المفاجئ ذعر السيد (منير) الذي أخذ يردد شيئًا ما باللاتينية، ليتوقف الطفل عن إصدار تلك الضوضاء السخيفة، ولتنطفئ البلورة الزجاجية دفعة واحدة..

و بغضب هائل صاح السيد (منير):

-" أيها الأحمق.. أتريد أن تقضي علينا جميعًا بتصرفك هذا؟!"

- "إن كنت أنا أحمقًا، فلماذا لا تفسر لنا أيها العبقري ما الذي يحدث بالضبط ؟؟"

- "لا بد أن هناك شيئًا ما لم نفعله.. هذا هو كل شيء.. سأراجع أوراقي وسنكرر التجربة في وقت لاحق.."

- "كررها بمفردك إذن، فلن أشارك في هذا السخف ثانية.."

و دون أن ينتظر ردًا، اندفع مغادرًا المكان بثورة، ليتركنا نتبادل النظرات الحائرة..

كان السيد (علاء) شاردًا يفكر في كبده المتليف وموته القادم لا محالة، بينما بدا السيد (فهمي) مثيرًا للشفقة بحق، وهو يحاول إخفاء وجهه بكفيه، وقد أفشى سره أمامنا على هذا النحو، بينما اكتفى السيد (منير) بأن أخذ يشعل غليونه وقد أعاد الإضاءة إلى الدرجة الطبيعية، قبل أن يقول:

- "لا داعي للقلق.. سنكرر التجربة مرة أخرى لاحقًا بعد أن أعرف

ما الخطأ بالضبط.."

"كانت رسالته التي تطلب منا الرحيل واضحة، فهزّ (علاء) رأسه بشرود، وغادر المكان دون أن ينطق بحرف، بينما وقف السيد (فهمي) وأخذ يبحث في ذهنه عن شيء لائق ليقوله، فلم يجد سوى:

- "ليلة طيبة.."

و غادر المكان ليتركني أشير إلى الجثة قائلاً:

- "وماذا عن هذا؟!"

- "اتركه لي قليلاً.. ربما احتجت له لأفهم ما الخطأ الذي حدث.."

لم أكن متحمسًا للاحتفاظ بالجثة، كما أن الإحباط الذي أصابنا جميعًا، كان يدفعني للإسراع بالمغادرة، فقلت:

- "كما تشاء.."

و غادرت الغرفة.. فالفيلا.. لأنطلق بسيارتي في الشوارع المظلمة بين بيوت المقطم الكئيبة..

ليلة أخرى من عمري تضيع دون أن أعرف أين أخفت زوجتي ثروتها..
ليلة أخرى من عمري لن تعود مجددًا..

❁ ❁ ❁

لكن الليلة لم تنته عند هذا الحد، ولا بد أنك توقعت هذا بصورة أو بأخرى..

كنت قد أوشكت على الوصول إلى منزلي حين دق جرس هاتفي المحمول، فرددت على الفور ليأتيني صوت السيد (منير) يهتف بانفعال لم أعهده فيه قط:

- "(أنور).. تعال فورًا.."

قالها ثم أغلق الخط على الفور دون أن يمنحني فرصة للرد، ودون أن يجيب عليّ إذ أخذت أحاول الاتصال به لأفهم ما الذي حدث..

ثم – وقد تغلبَ فضولي على حنقي – استدرتُ بالسيارة لأعود إلى المقطم، وأنا أضرب أخماسًا في أسداس.. ترى هل فعلها؟؟

هل نجح؟!

كانت الطرق شبه خالية في هذا الوقت، لذا لم ألق مشقة في العودة إلى تلك الفيلا في المقطم، لأجد أن سيارة السيد (علاء) تقف في الخارج، فضاعف هذا من فضولي، لأخرج من السيارة متجهًا إلى بوابة الفيلا، التي لم أندهش كثيرًا حين وجدتها مفتوحة..

ثمة شيء ما حدث ها هنا، وأنا أشم رائحة هذا الشيء لكني لا أدري كنهه.. تجاوزت الردهة وأنا أنادي بأعلى صوتي:

- "سيد (منير).. (علاااء).."

لم يجبني أحد فاتجهت على الفور إلى الغرفة التي أجرينا فيها التجربة، وفتحت بابها و... و...

و كما توقعت أيضًا، وجدت الهول ذاته في انتظاري..

كان السيد (علاء) يقف قرب الباب، وجسده ينتفض بهلع وعيناه جاحظتان بشدة، بينما أخذ السيد (منير) يزحف على الأرض تجاهه وهو يمدّ يده أمامه وقد شحب وجهه بصورة مخيفة وتساقطت خصلات شعره على وجهه، ليبدو كالموتى الأحياء في أفلام الرعب القديمة، وقد اكتسى المشهد كله أمامي باللون الأحمر الساطع، القادم من البلورة..

"لكن اللون الأحمر يعني حضور أسوأ ما في هذا العالم وأشده خطورة.. لو تألقت هذه البلورة باللون الأحمر فسيعني هذا أن فرصتنا في النجاة من هذه التجربة ضئيلة.."..

هذا ما قاله لنا السيد (منير).. وهذا يعني أن هناك كارثة رهيبة موشكة على الحدوث، إن لم تكن حدثت فعلاً..

انتزعت الصرخة من حلقي:

- "سيد (منير).. ما الذي حدث؟!"

بالطبع لم يجبني أحد، بل واصل السيد (منير) زحفه المخيف هذا تجاه

(علاء) الذي شلّه الهلع تمامًا، ثم توقف السيد (منير) أخيرًا وإن ظلّ يشير بيده الممدودة على (علاء)، لتخرج الكلمات من فمه، بصوت لا يمت له بصلة:

- "أنت.. أنت ستقيء دمًا حتى تموت.."

قالها ثم تهاوى جسده دفعة واحدة!!

هنا بدأ السيد (علاء) في إطلاق الصرخات الهستيرية، ففقدتُ أنا أعصابي نهائيًا، وحملتُ أول مقعد أمامي، لأهوي به على البلورة الزجاجية، لتتهشم بدوي أشبه بالقنبلة..

ساد الظلام الغرفة، ليرتفع صوت صرخات السيد (علاء) الهستيرية أكثر وأكثر، بينما انحنيت أنا على السيد (منير) لأفحصه..

لكنه كان قد مات.. حالة منتهية كما اعتدنا أن نسمي كل من غادروا عالمنا البغيض هذا!!!

ما الذي حدث هنا؟!

و أين اختفت جثة الطفل؟!؟!؟!

انتبهت إلى هذه الحقيقة الجديدة، في اللحظة التي دخل فيها السيد (رضا) الغرفة لبضيتها، ولينظر إلى المشهد الرهيب أمامه، قبل أن يهتف بعصبيته المعتادة:

- "ما الذي حدث؟!.. ما الذي..؟"

لكنه بتر سؤاله ليهوي على وجه السيد (علاء) بصفعة هائلة أخرسته على الفور، قبل أن يكرر هو هتافه:

- *"ما الذي حدث هنا؟!!"*

أجبته محاولاً التماسك:

- "لا أعرف.. لقد وصلت لأجد أن السيد (منير) يموت وهو يشير إلى السيد (علاء)، والأسوأ من هذا أن جثة الطفل اختفت.."

- "ماذا تقول ؟!.. (منير) مات!!.. الطفل اختفى!!"

ثم وبعملية يحسد عليها أسرع مغادرًا المكان كله، تاركًا المأساة كلها على رأسي..!

لم أجد أمامي سوى (علاء) الذي انهار يبكي في ركن الغرفة، فانحنيت عليه لأسأله:

- "أخبرني ما الذي رأيته.."

لكن حالته أجابتني بأن الحصول على رد منه، سيكون ضربًا من الخيال، فتركته لأبدأ في البحث عن جثة الطفل التي اختفت.. لا بد أنها هنا في مكان ما.. لابد لأنها جثة رغم كل شيء..

لكن نتيجة بحثي الذي لم يسفر عن شيء، جعلتني أقف في ردهة الفيلا أرتجف.. الجثة اختفت.. السيد (منير) مات.. والسيد (رضا) هرب، ولا بد أن (فهمي) في الطريق إلى هنا، بينما يبدو أن (علاء) قد فقد عقله إلى الأبد..

ما الذي تفعله لو وجدت نفسك في مثل هذا الموقف؟!

موت (منير) سيعني أن هناك تحقيقات وشرطة واتهامات وسيتم ذكر موضوع سرقة جثة الطفل من المستشفى والغرض من هذه التجربة وكل ما يكفي لتتدمر حياتك إلى الأبد..

ما الذي ستفعله لو وجدت نفسك في مثل هذا الموقف؟!

ببطء قدريّ أغمغم:

- "هذا المكان يحتاج إلى تطهير.."

و أبدأ في تطهيره..

❁ ❁ ❁

الآن أقود سيارتي مبتعدًا عن المكان، وقد ارتفعت ألسنة اللهب من الفيلا لتمحوها من الوجود..

لابد أن أحدهم استيقظ وأنه أبلغ الشرطة والمطافي، لكن حين يصل هؤلاء سيكون الأمر قد انتهى، فلقد حرصت على إلقاء البنزين في كل ركن

في هذه الفيلا الملعونة..

السيد (علاء).. حسن.. لقد حاولت إخراجه، لكنه كان قد فقد عقله تمامًا، ولم أكن لأخاطر بخسارة كل شيء أملكه من أجل مجنون مصاب بتليف الكبد!..

لست أعرف أين السيد (فهمي) ولا السيد (رضا) الآن، لكني واثق من أنهما لن يتحدثا في هذا الموضوع مع أحد.. ستُمحى هذه الليلة من تاريخنا ببساطة وإلى الأبد..

الآن أقود سيارتي وأنا لم أخسر إلا فرصتي في معرفة مكان ثروة زوجتي الراحلة، لكنني سأواصل البحث..

حتمًا سأجد الـ...

"زوجتك حولت ثروتها إلى ماس، وأخفته في صندوق، دفنته في القبو"

ارتفع الصوت من المقعد الخلفي فانتفضت بذعر، لأنظر إلى الشيء الذي جعلني أصاب بالهلع لأصرخ بذعر هائل، ولأفقد التحكم في السيارة..

إلى الطفل الذي جلس في ظلام المقعد الخلفي، وإن مرّ ضوء مصابيح الإنارة في الشارع على وجهه لحظة، لأرى أنه يبتسم ابتسامة شيطانية مخيفة..

لحظة واحدة رأيت فيها وجهه الملطخ بالدماء الجافة، وتلك الابتسامة

التي صاحبت جميع كوابيسي بعد هذه الليلة.. ثم سمعت بوق تلك السيارة ورأيت مصباحين عملاقين يتجهان تجاهي بسرعة خرافية.. ثم... ثم...

ثم انتهى كل شيء بغتة..

❁ ❁ ❁

فيما بعد عرفت أن السيد (فهمي) قتل زوجته في ذات الليلة وسلّم نفسه للشرطة..

و عرفت أيضًا أن السيد (رضا) غادر البلاد بلا رجعة، بينما أُغلقت قضية فيلا السيد (منير) المحترقة بعد أن عثروا على جثته وجثة السيد (علاء)، دون أن يجدوا دليلاً واحدًا يصلح لاتهام أحد به..

أما أنا.. فلقد نجوت من الحادث حقًا، لكنني الآن مصاب بالشلل الكلي، ولن يمكنك أن تتخيل كيف أن قدرتي على تحريك سبابتي اليسرى -آخر ما يمكنني تحريكه بإرادتي في جسدي- هي الشيء الوحيد الذي جعلك تقرأ هذه القصة..

ثروة زوجتي في صندوق مدفون في قبو منزلي بالمناسبة لو أردت المغامرة والحصول عليه، لكن يجب أن أحذرك أيضًا أنهم لم يعثروا على جثة الطفل في حادث السيارة..

في الواقع لم يعثروا عليها حتى الآن!!

لا أعرف -وربما لن أعرف- أين هو الآن.. لكني أتخيله دومًا يجوب ظلال الطرقات بوجهه الملطخ بالدماء الجافة وابتسامته الشيطانية المخيفة..

وحده يعرف حقيقة ما حدث..

وحده يعرف ما هو الثمن الذي يدفعه البؤساء الذين تألق في وجوههم اللون..

الأحمر..

❁ ❁ ❁

برتقالي

"كنت أعرف أن تعلّق ابنتي بهذه الدمية غير طبيعي.. كنت أعرف هذا لكني تجاهلته.. لهذا أنا أستحق"

❁ ❁ ❁

من الصعب دائمًا تحديد النقطة التي تبدأ من عندها الأحداث.. حين تقول (*بدأ كل شيء منذ...*) فأنت لا تحدد البداية بدقة، إنما تحدد الوقت الذي انتبهت أنت فيه لما يحدث طيلة الوقت من حولك، وحتى هذا يخضع لقوة ذاكرتك، ولا يوجد مثال أفضل مما قاله الكاتب العظيم (ماركيز)، حين وصف كتب التاريخ قائلاً:

- "التاريخ ليس ما حدث حقًا.. بل ما تتذكره وكيف تحكيه"..

من الصعب إذن أن أحدد لكم متى بدأت ابنتي في التغير، لكنني سأقول أن كل شيء بدأ حين قرر زوجي السفر فجأة إلى الخليج بحثًا عن المال الذي لم يجده هنا..

أي زوجة تعرف تلك اللحظة التي يتحول فيها الزوج من الحبيب ذي الصدر الدافئ، إلى مصدر تمويل المنزل، بل وتطالبه بها إن لم يفعلها هو بمفرده.. أنا أحبك نعم.. لكن هناك فواتير الماء والطعام والكهرباء والتليفون ومدرسة الطفل والملابس والمناسبات، ولن يغنيني دفء صدرك عن هذا كله..

لهذا سافر زوجي.. لأنه أدرك أن دوره في المنزل تقلص إلى ماكينة صرف نقود، عليها ألا تضنّ علينا بالأوراق المالية المحببة التي تشتري السعادة الحقّة!

• • •

من الصعب دائمًا تحديد بداية الأحداث، لكنني سأعود بذاكرتي إلى اليوم الذي اصطحبتُ فيه طفلتي (رنا) إلى السوق لتشتري بعض الألعاب، وفي هذا حل أكيد لبكائها الدائم على اختفاء أبيها من المنزل.. هذا هو أجمل شيء في الأطفال؛ قدرتهم على النسيان..

(رنا) تبلغ من العمر تسع سنوات، وهو العمر الذي تعرفه أي أم وتمقته.. إنه الوقت الذي يتعلم فيه الطفل كيف يكون مزعجًا ومؤذيًا في الآن ذاته، وهو العمر الذي تعتاد فيه الأم على ضرب طفلها في محاولة يائسة لتهذيبه، تستمر حتى يكبر هذا الطفل ويترك المنزل بلا رجعة، لكنني في هذا اليوم كنت أجرّ معي طفلة بائسة، لا تفهم سر اختفاء والدها من المنزل رغم تعلقه الشديد بها.. من المستحيل على من في عمرها أن يفهم أهمية المال، وهذه نقطة أخرى في صالح الأطفال..

السخيف في الأمر أن حزن ابنتي كان صادقًا وقويًا إلى الدرجة الذي جعل كل اللعب والهدايا في نظرها، أشياء حمقاء سخيفة لا يمكن أن تخفف عليها، والأسوأ من هذا أنني – ومع بؤسها المستمر – بدأت أدرك حقيقة أنني أصبحت امرأةً وحيدة.. امرأةً بلا رجل ومسئولة عن طفل!

صحيح أنني من شجّع فكرة السفر، لكن هذا لا يمنع من أنني أفتقد وجوده.. أفتقد صوته الرجولي وهالة الأمان التي يحيط بها المنزل.. كل هذا لم يعد موجودًا لأننا نحتاج للمال اللعين!!

و هكذا بدأ الأمر يتحول من أم تحاول الترفيه عن طفلتها إلى ثنائي بائس يجوب طرقات المدينة بلا هدف، حتى أنني قررت العودة إلى المنزل حيث يمكنني ممارسة حقي في البكاء بلا حرج، حين توقفت ابنتي فجأة أمام متجر للألعاب، وقد تعلقت عيناها على دمية محددة..

دمية دب مكتنز، في حجمها تقريبًا، ويحمل وجهه ابتسامة واسعة مرحبة، بينما تحدق عيناها البرتقاليتان بإصرار في وجه الجميع.. دمية عادية لا تحمل أي ابتكار، لكنها جذبت اهتمام (رنا) فانحنيت عليها لأقول بحنان:

- هل تريدينها؟!

هزّت رأسها الضئيل أن (نعم) فلم تمض عشر دقائق حتى كانت تحملها بين ذراعيها لنتجه إلى المنزل، وقد علت وجهها الملائكي – أخيرًا – ابتسامة رضا وحبور..

ألم أقل لكم أنها طفلة، وأنها ستنسى؟!.. لكن..

من يأتي لي بدب بني مكتنز يساعدني على النسيان؟!!

❁ ❁ ❁

لم ألحظ ما يحدث في بدايته لأنني كنت مشغولة..

إنني الآن ألعب دور الأم والأب، وفي هذا مشقة أي مشقة.. لم أعرف حقًا كم العبء الذي كان يزيحه زوجي عن صدري إلا في هذه الفترة، ورغم كوني ربة منزل لا تعمل إلا أنني كنت أعاني الأمرين كل يوم من اللحظة التي تترك فيها (رنا) فراشها وحتى تعود إليه..

في نهاية اليوم أجلس وحدي على الفراش أسجل وبدقة مصاريف اليوم وما تبقى من نقود وما يجب عليّ إدخاره – زوجي لن يسافر إلى الأبد– وما يمكن اقتطاعه لحسابي الشخصي، وبعد أن أنتهي من هذا، أظل بقية الليل أرمق الفراغ الكائن جواري على الفراش، والذي كان يحتله جسد زوجي منذ أسابيع قليلة..

مهما حاولت المرأة ستظل أهمية وجود الرجل في حياتها حقيقة لا فرار منها!

كان كل شيء يسير على ما يرام، لكنني لم أعرف أن ابنتي لم تكن تنام هي الأخرى على فراشها..

ما عرفته بعد ذلك أنها كانت تقضي ليلتها كلها تتحدث..

تتحدث بصوت خافت مرتجف إلى دميتها.. الدب المكتنز ذو العينان البرتقاليتان..

متى عرفت هذه الحقيقة الجديدة؟!

حسنًا إنني أتذكر هذا اليوم جيدًا...

* * *

كان يوم اثنين، وكنت قد استيقظت منذ السادسة صباحًا كعادتي لأعد طعام الإفطار لـ (رنا) قبل أن أوقظها لتذهب إلى المدرسة، لكنني حين ذهبت إليها في غرفتها وجدتها جالسة على فراشها وقد بدا جليًا من عينيها المحتقنتين والإرهاق البادي على وجهها الملائكي، أنها لم تنم إطلاقًا..

سألتها بقلق:

- رنا.. هل أنت مريضة؟!

هزت رأسها أن (لا)، فسألتُ:

- ألم تنامي جيدًا ليلة أمس؟!

هزّت رأسها أن (لا) مرة أخرى، فسألتُ:

- لماذا؟!

هنا ظلت (رنا) صامتة قليلاً كأنما تستجمع طاقتها لتجيب، ثم مدت يدها ببطء لتشير إلى دبها المكتنز دون أن تنطق بحرف، ففهمت أنا الموقف – كنتُ حمقاءَ ولم أفهم شيئًا لكني لم اعرف هذا في حينه – وهتفتُ فيها:

- أخذتِ تلعبين طيلة الليل ولم تنامي.. أليس كذلك؟!

لم تجبني (رنا) هذه المرة، وبدا وكأنما قد استنفذت طاقتها كلها، فقررت أن أتركها هذا اليوم دون أن تذهب إلى المدرسة، وقلت بغيظ:

- إذن ارتاحي اليوم.. لا مدرسة..

لكنني قبل أن أخرج أخذتُ الدبَّ المكتنز معي وأنا أردف:

- و لا لعب كذلك.. هيا.. نامي.

و هكذا أغلقتُ عليها الباب وعدتُ إلى غرفتي لأظفر بالنوم، وقد بدا أنني قد أحظي بساعات نومٍ إضافية هذا اليوم، دون أن يؤدي هذا إلى كارثة..

ألقيتُ بالدب على أحد الأرائك في ردهة المنزل، ثم ذهبت إلى غرفتي لأنام، على أن أستيقظ بعد عدة ساعات لأعد طعام الغداء ولأواصل طقوس اليوم المعتادة..

كان يومًا عاديًا لم يستجد فيه شيءٌ.. (رنا) استيقظتْ عصرًا وقد بدا عليها الانتعاش، وقضت يومها في مذاكرة دروسها تحت إشرافي، وفي نهاية اليوم سمحتُ لها بالجلوس أمام التلفاز قليلاً حتى أتت الساعة التاسعة مساءً؛ فحملتها حملاً إلى فراشها وأنا أقول:

- نامي جيدًا.. ستذهبين إلى المدرسة غدًا.

و بعد أن أوت إلى فراشها، عدتُ أنا إلى غرفتي لأواصل تسجيل مصاريف اليوم الجديد، وهي عادة غير مفيدة إطلاقًا في حالة الادخار، لكنها تقتل الوقت قتلاً وهذا ما أحتاج إليه حقًا..

أتذكر يومها أنني – وحين تسلل النعاس إلى جفوني – قررت أن أمرّ على غرفة (رنا) أولاً، لأتأكد من أنها (تأكل أرزًا مع الملائكة كما يقولون) لكني لم أكد أصل إلى باب غرفتها حتى سمعتها تتحدث..

تتحدث بصوت خافت مرتجف، لم أميز معه ما تقوله بالضبط، لذا دخلت على الفور لأرى ما الذي يحدث بالضبط، فوجدتها تجلس على الفراش، وقد وضعت دبها المكتنز – الذي التمعت عيناه البرتقاليتان على ضوء القمر – أمامها تتحدث إليه بخوف شديد استحال إلى فزع حين رأتني..

كنت حمقاء أيها السادة، لذا فلم أفعل سوى أنني صرخت فيها وجذبت الدب من أمامها وأنا أهتف بصرامة:

- نامي فورًا.

و على عكس ما تخيلته، لم تقاوم، بل وبدا الأمر وكأنها كانت تنتظر من يأخذ الدب من أمامها، فحملته معي خارجة من الغرفة لألقيه في الصالة مجددًا..

لم أكن أعرف.. لم أكن أفهم.. ولهذا استمر الأمر أكثر من هذا..

❁ ❁ ❁

هكذا اعتدتُ أن أحمل الدب من أمامها كل ليلة، لأتأكد من أنها ستنام..

اعتدتُ أن ألقي الدب على أحد الأرائك في الصالة، ثم أنام ويمر اليوم، وفي المساء أحمل الدب مجددًا من أمام (رنا) في غرفتها..

ما دامت ابنتي تخشاه إلى هذا الحد، فلماذا كانت تحمله إلى غرفتها كل ليلة إذن؟!..

سؤال بديهي لكنني لم أفكر فيه قط، حتى جاء اليوم الذي دفعني للبدء في التفكير في هذا الموضوع..

كنت أمرّ بطقوس اليوم المعتادة، وكنت قد بلغت ذروة إرهاقي مع حلول الليل، حتى أنني قررت أنه لا داعي لتسجيل مصاريف اليوم، لكني قررت أن أمرّ على غرفة (رنا) للاطمئنان عليها قبل النوم، وحين دخلت عليها كانت هناك مفاجأة عجيبة بانتظاري.. في تلك الليلة بدأتُ القلق.. في تلك الليلة بدأتُ الخوف..

كانت (رنا) قد فصلت رأس دميتها عن جسدها الذي ألقته في ركن الغرفة، بينما وضعت الرأس المقيت في حجرها، تنظر إلى العينين البرتقاليتين

بوجل، وتهمس محدثة رأس الدب بخوف..

أي طفلة التي تلعب بهذه الصورة؟!!

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أنتزع الرأس من يدها، لأصرخ فيها بعنف لم أعتده في نفسي، بينما ظلت هي صامتة على الفراش، تسيل دموعها قطرات على وجنتيها، وسهام من نار في قلبي.. لماذا يا (رنا)؟!.. لماذا؟!

بالطبع أصابتني دموعها بالهستريا، وبعد كثير من الصخب كنت أحتويها في صدري ونبكي سويًا..

- لماذا قطعتِ الرأس يا (رنا)؟!
- هو أخبرني.. قال أن الجسدَ غير مهم..
- من هو؟!!
- الذي يعيش في العينين البرتقاليتين..

❁ ❁ ❁

الأطفال يصابون بالاضطرابات حين يفقدون أحد والديهم.. قرأت هذا من قبل وأذكره الآن..

(رنا) تفتقد والدها بشدة، وهذا هو كل شيء.. لا داع للإصابة بالجنون.. لا داع للانتحار!

(رنا) مضطربة نفسيًا.. لكن.. *ما الذي عليَّ أن أفعله أكثر من هذا؟!!*

بالطبع لم أكن قد وصلت بعد إلى المرحلة التي تمكنني من ربط كل ما يحدث بالدمية..

أنت تنظر الآن إلى الموضوع من أعلى؛ مما يُمكّنك من رؤية الصورة كاملة، أمّا أنا فكنتُ تفصيلة صغيرة في الصورة الكاملة، لا يمكنها سوى أن تنظر إلى التفاصيل الصغيرة من حولها..

ذهبتُ إلى طبيبة نفسية بحثًا عن المشورة.. وإلى دجالة معروفة بحثًا عن الأمل.. ولم أترك بابًا إلا وتوسلت أمامه علّني أفهم ما الذي أصاب ابنتي بالضبط..

إنها لا تتحدث إطلاقًا.. لا تنام أبدًا.. لا تفعل شيئًا سوى التحديق المستمر في عيني رأس الدب البرتقالية كأنها تجد في هذا الشيء راحتها الوحيدة.. حاولت التخلص من رأس الدمية، لكن دموعها الصامتة كانت تجعلني أتراجع كل مرة..

إنها طفلة بائسة تتعذب، فلماذا أحرمها من الشيء الوحيد الذي تريده؟!

بالطبع لم آخذ كلامها بخصوص الشيء الذي يعيش في العينين البرتقاليتين بجدية، بل اكتفيت بالاعتقاد أن ابنتي أصيبت بالخبال لشدة

الحزن، وأنه عليّ أن أساعدها بأي وسيلة..

كنت أعرف أن تعلّق ابنتي بهذه الدمية غير طبيعي... كنت أعرف هذا لكني تجاهلته..

لهذا أنا أستحق ما حدث بعد ذلك..

أستحقه تمامًا..

❁ ❁ ❁

في أحد الأيام وأثناء تجولي في السوق لأشتري ضروريات المنزل، شعرت بذلك الهاجس الخفي الذي تشعر به أي أم، والذي يخبرها أن طفلها في خطر.. هذا هو الهاجس الذي يوقظنا في منتصف الليل لنجد طفلنا الرضيع يكاد يسقط من على فراشه.. لا معجزات في الأمر.. لكنه شعور داخلي عميق..

كنت قد تركتُ (رنا) في المنزل – فهي لم تعد تذهب إلى مدرستها منذ زمن – لذا أخذت في طريق عودتي إلى المنزل أبني تصورات سوداوية عمّا يمكن أن يكون قد حدث..

لقد أشعلت النار في الشقة وهي الآن تختنق حتى الموت... لقد دسّت إصبعها في قابس الكهرباء... لقد ألقت بنفسها من الشرفة.. شيء ما حدث!

لكني حين وصلت إلى المنزل، وجدت ما هو أسوأ من هذا كله...

كانت ابنتي (رنا) تجلس على أرض الصالة، ورأس الدب ذو العينين البرتقاليتين أمامها يحدق فيها بثبات، وهي كانت تبكي بهستيريا مخيفة كأنها رأت مذبحة مخيفة منذ لحظات..

ألقيت بكل ما في يدي، لأرفعها من على الأرض ولأدفنها في حضني وأنا أردد بجزع:

- (رنا) حبيبتي.. ما الذي حدث؟!
- *بابا!!!!!!!!!!!!*
- أعرف يا حبيبتي.. أعرف.. إنك تفتقدينه، لكن... لا بأس سأتصل به وأطلب منه أن يعود و...
- *بابا.. مااااااااااااااات..*
- !!!!!!!!!!!!
- *أريد بابا!!!!!!!!*

أصابتني كلماتها بالجنون، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أرجها بعنف، صارخة:

- من قال هذا؟!!

ببطء أشارتْ بيدها إلى رأس الدب ذي العينين البرتقاليتين..

في هذه اللحظة شعرت.. في هذه اللحظة فهمت... في هذه اللحظة أدركت الحقيقة كاملة بلا رتوش..

وهنا ارتكبتُ أكبر خطأ في حياتي كلها!..

تركت طفلتي وأسرعت أعدو إلى السنترال المجاور للمنزل، لأحاول الاتصال بزوجي.. يجب أن أسمع صوته الآن، ويجب أن يعود إلى المنزل اليوم!!..

وصلت إلى السنترال وطلبت الرقم بأصابع مرتجفة..

و مع مرة كان يجيبني فيها الرنين المستمر كنت أفقد أعصابي أكثر وأكثر.. أين أنت أيها الوغد؟!!

وارتفع ذلك الصوت المقيت في أعماقي يردد: *لقد مات.. لقد مات.. لقد مات.. لقد مات.. لقد مات.. لقد مات.. لقد مات.. لقد مات..*

و بعد محاولات استمرت لساعة كاملة، أصبح عندي يقين أنني تحولت إلى أرملة..

أرملة مسئولة عن طفلة مخبولة..

(رنا).. لقد تركتها بمفردها.. يا إلهي!!..

و هكذا عدت أسرع الخطى إلى المترل وأعصابي تحترق في رأسي، وحين وصلت إلى المترل كنت أتمنى شيئًا واحدًا..

أن أعثر على ابنتي حية!!

و الواقع أنني عثرت عليها حية.. الواقع أنني أذكر هذا المشهد بالذات جيدًا فأنا أراه في كل لحظة من حياتي وحتى الآن.. الواقع أن أحدًا لن يصدق ما رأيته أنا في تلك اللحظة..

كانت ابنتي تقف في صالة المترل وعلى وجهها تعبيرٌ جاف مخيف، بينما صوتها الخافت ينادي:

- *أمي.. أمي..*

لم تكن شفاها تتحرك، لكني كنت أسمع صوتها واضحًا، وحين انتبهت إلى مصدر الصوت الحقيقي، تجمدتْ الدماء في عروقي..

ومأخوذة تجاوزت ابنتي التي تحولت إلى تمثال صامت لم ينطق إلى يومنا هذا، وحملت رأس دمية الدب ذي العينين البرتقاليتين.. الرأس الذي ارتفع

منه صوت ابنتي الخافت يقول:

- *أمي.. أنا هنا!!..*

❁ ❁ ❁

[illegible]

[illegible] ...!!!

[illegible] في رأسي [illegible]

[illegible]

لم أخبر [illegible] أمي شيئاً

[illegible]

كانت أمي تقف [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] التي لا [illegible] حدوثها..

إن أعصابي مرهقة [illegible] ولا [illegible] من [illegible] الأخرين.

في مراجع الطب [illegible] (زانثوبسيا).. [illegible] حالات [illegible] الأطباء [illegible] (زانثوبسيا).

تقول مراجع الطب إن مرضى الصفراء - حالات محدودة جداً من مرضى الصفراء - يرون [illegible] أصفر.. [illegible]

[illegible] على شاشة [illegible] الإلكترونية [illegible] هذا الخلل [illegible] أنت تعرف أن هذا هو ما تراه [illegible]

أصفر

* * *

[illegible] (محمد [illegible]).. لابد أنك [illegible] ذلك.. لماذا؟..

سوف أخبرك بالقصة كلها لكن من فضلك لا ترفع صوتك..

إن أعصابي مرهقة بما يكفي ولا أتحمل أي نوع من الحماس يتطوع به الآخرون..

في مراجع الطب يطلقون عليها اسم (زانثوبسيا).. قليلة هي حالات (الزانثوبسيا).. قليل هم الأطباء الذين سمعوا عن (الزانثوبسيا)..

تقول مراجعُ الطبِ إن مرضى الصفراء – حالات محدودة جدًا من مرضَى الصفراء – يرون العالم أصفر.. هناك عقاقير معينة تسبب الحالة ذاتها..

من المخيف أن ترَ العالم وقد صار مصابًا بفقر الدم.. لو رأيت هذا على شاشة جهاز التلفزيون لأصابك الهلع وجريت إلى أقرب خبير إلكترونيات ليعالج هذا الخلل، أما أن تراه بعينيك وأنت تعرف أن هذا هو ما تراه فعلاً، فإن هلعك لا يوصف بكلمات.. أما الأكثر إثارة للتوجس فهو أن هذه ليست حالة (زانثوبسيا).. لا يوجد سبب يفسر ما تراه الآن.. فهل هو الجنون؟

❁ ❁ ❁

اسمي (محمد صبري).. لابد أنك خمنت ذلك.. لماذا؟..

لأنه لا يوجد واحد آخر في العالم يراه أصفر سوى (محمد صبري)..

بدأ كل شيء كما تعلم عندما صحوت من النوم ذلك الصباح لأجد أن كل شيء في الكون أصفر.. فركت عيني مرارًا واتجهت إلى الحمام وغسلت وجهي وعيني.. غسلتهما حتى احترقتا تقريبًا ثم نظرت للكون من حولي: أصفر..

ماذا دهاني؟.. ماذا حدث؟..

فتحت النافذة ونظرت إلى السماء.. ما زالت فيها زرقة اختلطت باللون الأصفر فصار المزيج أقرب للخضرة.. من قال إن الأخضر جميل؟.. أنا لم أر في حياتي أقبح من هذه السماء الخضراء..

عدت للداخل وحاولت أن أتماسك.. ثمة شيء ما خطأ..

كانت أمي قد صحت من النوم.. متثائبة خرجت من غرفة النوم وهي تحك شعرها.. ويبدو أن وجهي أثار قلقها لأنها سألتني:

ـ"ماذا بك؟"

قلت وأنا أوسع عيني عن آخرهما:

ـ"أصفر.. كل شيء أصفر!"

ـ"بسم الله الرحمن الرحيم!"

سألتها وأنا أرتجف في جنون:

ـ"هل ترين العالم أصفر من حولك؟"

قالت وقد زالت عنها إمارات النوم في لحظة:

ـ"لا.. كل شيء على ما يرام.. لابد أنك مرهق.. إن عادة السهر مع أصدقائك هذه.."

قلت في عصبية وأنا أبتعد عنها:

ـ"لو كنا نقضي أمسياتنا في احتساء الخمور وتدخين الحشيش وقتل الأطفال فهذا غير كاف لتبرير ما أراه الآن.."

عندما انتصف اليوم صرت واثقًا من أن ما أراه لا يراه أحد سواي..

ومر الوقت كالكابوس حتى دنا عقرب الساعة من الثانية.. في هذا الوقت يتثاءب الكهنة ويتجهون – حاملين أسرارهم – إلى عياداتهم الخاصة ليبيعوها مقابل المال.. الكثير منه... وأنا بحاجة إلى كاهن... سأمنحه ما يطلب مقابل أن يمنحني قبسًا من علمه..

الكاهن الذي قصدته هو د. (سمير عبد العليم).. دكتوراه في طب العيون وزميل عدد من الكليات الغربية.. أجلس في عيادته أرقب العالم الأصفر.. ماذا لو كتب علي أن أراه بهذا الشكل ما بقي لي من عمر؟.. لا..

لا.. لا.. مستحيل.. ما أراه علامة مرضية لا ريب فيها.. وهذه العلامة المرضية سوف تعلن للكاهن الأكبر عن مرض أكبر وأخطر.. ربما يفتك بي.. لكن ما المشكلة؟.. من يريد أن يرى العالم اصفر ما تبقى له من عمر؟

لهذا حين جلست أمامه في المحراب، كان آخر شيء أرجوه هو أن يقول لي:

ـ"أنت سليم تمامًا!.."

ما تخشاه قد حدث.. إنها لعنة وأنت أول ضحاياها..

قلت له في عصبية:

ـ"لكني أرى العالم أصفر!"

قال في حنكة:

ـ"عيناك سليمتان تمامًا.. رؤية العالم أصفر تحدث في حالات محدودة جدًا وبالتأكيد أنت لست حالة منها.."

ـ"والعمل؟"

أشار إلى عينه وقال:

ـ"لا مشكلة هنا.. (وأشار إلى رأسه بحركة ذات معنى وقال) المشكلة هنا.."

ـ"تعني أنني مجنون؟"

ـ"الجنون كلمة ابتذلناها من فرط الاستعمال.. هناك كلمة أخرى اسمها العُصاب.. هناك أمراضٌ في المخ تسبب استقبال الحواس بشكل خطأ.. لا أعرف.. فقط أملك أن أتحدث عن مملكتي.. ومملكتي لا يوجد فيها مبررٌ لرؤية الأصفر.."

هكذا فارقته أجر أذيال الخيبة.. وبحركات كالمنوم مغناطيسيًا اتجهت إلى شقة أخرى في البناية التي تعج بالكهنة.. هذا كاهن مخ؛ لابد أنه يملك الجواب..

لم يأت رد كاهن المخ سريعًا بل أرسلني إلى كهنة آخرين قاموا بفحص رأسي بالأشعة..

وكهنة قاموا بتوصيل أقطاب بمخي وقرءوا النتائج على الورق..

وفي النهاية قال لي الكاهن الأكبر ما كنت أخشاه:

ـ"أنت سليم تمامًا!"

ـ"لكن ما أراه ليس سليمًا!.."

قال باسمًا:

ـ"إنه إرهاق لا شك فيه.. ستتناول بعض المقويات وأعتقد أنك ستشفى خلال أيام.."

أي انه قال بعد كل هذا الجهد ما قالته أمي التي لا تقرأ ولا تكتب بعد ثانية واحدة.. ماذا يتعلمون في تلك الكليات إذن؟

أصفر..

العالم كله أصفر.. السماء والسيارات وشفاه الفتيات والأزهار وحقائب الطلبة والكلاب الضالة وعربات الإطفاء وإشارات المرور..

أصفر.. أوراقي وثيابي الداخلية وشاشة التلفزيون ووجوه أصحابي..

أنا الوحيد الذي يعاني مشكلة كهذه وأنا الوحيد القادر على حلها..

سوف أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي:...

❁ ❁ ❁

ليلة الخميس عند صديقي (شريف).. عندما استبد بنا الملل ليلاً وقلت له إنني أعرف لعبة مسلية حقًا...

هات رقعة من الورق المقوى واكتب عليها الحروف الأبجدية كلها.. هات كوبًا مقلوبًا.. اجلسوا يا شباب حول هذه المنضدة وليضع كل منا إصبعًا على قاعدة الكوب ولنظلم المكان.. سنجرب تحضير روح..

(شريف) كان قلقًا لأن هذه التجارب تتم في داره لكننا سخرنا منه..

وهكذا جلسنا.. وهكذ مضى الوقت ونحن ننتظر أن يحدث شيء..

أحيانًا كان أحدنا يطلق مواءً مفاجئًا فنثب في الهواء مترين.. عندها كان يضحك بينما ننظر له في قسوة..

ـ"لا يُستحب المزاح في أمور كهذه.."

ننتظر.. أتبادل النظر مع (عصام) و(جمال).. أتمنى ان أزحزح الكوب بنفسي لأداعبهما.. لكن لا.. دعابة قاسية هي..

ويمر الوقت.. وهنا يرتفع صوت (شريف):

ـ"كفى.. واضح أن هذه خزعبـــــــــــــ..."

هنا بدأ الكوب يتحرك.. لا خداع في الأمر.. لا أحد منا يحركه بنفسه.. أنا متأكد من هذا..

يتجه الكوب إلى حرف (الكاف).. ثم حرف (الفاء).. ثم (الياء)..

ك – ف – ى

ك – ف – ى

يهتف (شريف) في حماس ممزوج بالهلع:

ـ"*كفى.. يقول لكم كفى!*"

الكوب يواصل الحركة:

ا – ن – ت – م / ت – ل – ع – ب – و – ن / ب – ا – ل – ن – ا – ر

س – ت – ح – ل / ب – ك – م / ل – ع – ن – ة / ا – ل – ش
– ي – ا – ط – ي – ن

هنا فقط لم تتحمل أعصاب (شريف) أكثر..

صرخ وأضاء النور ثم هتف بنا:

ـ"انتهى!.. لا أريد هذه الأمور في بيتي.. بالذات لا أريدها في غرفة نومي!"

ثم حمل الكوب وأطاح به من النافذة..

قال (جمال) بصوت مبحوح من فرط التوتر:

ـ"ما رأيكم؟"

قلت بصوت مبحوح أكثر:

ـ"كان هناك شيء يقينًا.. وقد لبى نداءنا!"

قال (عصام) وقد بدت عليه الجدية:

ـ"المشكلة هي.. هل انصرف؟"

نظرت له ونظرت للرقعة ولم أستطع الرد..

كان هناك شيء.. وقد أنذرنا بأن لعنة الشياطين ستحل بنا.. لكننا لم

نعرف بعد هل أنصرف أم لا.. الآن حينما أفكر في الأمر يبدو لي هذا سيناريو لعنة..

هل هي لعنة الشياطين حلت بعيني؟.. وماذا عن باقي المتورطين ملوثي الأيدي؟..

* * *

أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي..

في مكتب الدكتور (داود) أستاذ الكيمياء في كليتي..

لقد استدعاني – ليوبخني طبعًا – في ذلك الثلاثاء الحار.. دخلت المكتب فلم أجده لكني قدرت أنه عائد حالاً.. هناك كوب ماء على مكتبه وقدح قهوة ساخن..

هكذا سمحت لنفسي بالجلوس..

رحت أتأمل صور أسرته على الجدار.. من الغريب أن لهذا الرجل أسرة مثلنا.. يلبس المنامة ويجلس أمام التلفزيون ويعبث في أصابع قدميه.. لم يولد من بطن أمه بالمعطف الأبيض حاملاً تحت إبطه مظروف أوراق الامتحانات..

الطقس حار فعلاً.. هكذا مددت يدي إلى كوب الماء وجرعت جرعة لا بأس بها.. منذ طفولتي أعاني تلك المشكلة.. أنا أشرب أولاً ثم أتذوق بعد هذا..

وهكذا أدركت أن هذا الذي شربته ليس ماء.. إنه سائل كريه له مذاق الزئبق لو كان للزئبق مذاق.. بصقت في منديلي ثم نسيت الأمر لأن الرجل دخل المكتب لحظتها فهببت واقفًا..

قال لي وهو يخرج أشياء من جيبه:

ـ آه.. هأنتذا أتيت يا أبا جهل.. إن درجاتك في امتحان أعمال السنة..

ثم تصلب ونظر إلى الكوب الفارغ وهتف:

ـ"من فعل هذا؟"

كنت أعرف أنني سألام على شيء ما، فهززت رأسي في غباء بما معناه أنني لا أعرف.. قال وهو يعيد تفحص الكوب:

ـ"غريب هذا.. كان خطأ فادحًا أن أضع المحلول في كوب ماء لكني لم أتوقع أن يدخل أحدهم مكتبي.. هذا ما تفعله الأمهات الجاهلات حينما يضعن صودا الغسيل في أكواب ماء لتبدو كاللبن، ويشربها الأطفال.. كل حالات احتراق المريء في مصر تعود لهذا السبب الغبي.."

وحك رأسه في ضيق وغمغم:

ـ "وأنا فعلت الشيء ذاته.."

سألته في حذر وأنا أتحسس بطني:

ـ "هل ما كان في الكوب صودا غسيل يا سيدي؟"

ـ "ليته كان كذلك.. إنها تجربة أقوم بها حاليًا ونتائجها هي...."

ثم بدا عليه نفاد الصبر وقال وهو يجلس خلف مكتبه:

ـ "أنا متعكر المزاج الآن.. عد إليّ في وقتٍ آخر.."

متعكر المزاج؟.. ومنذ متى لم يكن كذلك؟

الآن أتذكر هذا الحادث وأسأل نفسي: هل للسائل الذي كان في الكوب علاقة بما حدث؟

❁ ❁ ❁

استرجع ما كان في حياتي الشهر الماضي..

و(سلوى) الفتاة التي صارت كلَّ شيءٍ في حياتي تسند رأسها إلى الشجرة..

لم أر حتى هذه اللحظة إنسانًا أو جمادًا أو مكانًا أو حلمًا أجمل ولا أرق منها.. لقد ذهبتُ بصوابي تمامًا..

أدنو منها وأهمس في أذنها كم أحبها..

تنظر في شرود إلى الأفق وتهمس:

ـ"لا أعرف.. لو أنك عرفتَ حقيقتي.. لو عرفتَ من أنا حقًا.. فلربما

بدّلت هذا الرأي".

هذا مشهد من فيلم عربي.. هل ستصارحني بأن أمها راقصة أو أن أباها هو (خُط) الصعيد؟

تقول وهي تتنهد:

ـ"أنا من عالم آخر.. أر الأشياء ليس كما ترونها أنتم.. أسمع الأصوات ليس كما تسمعونها أنتم.. أنا مختلفة.. هل تفهم هذا؟"

فعلاً هي مختلفة.. منذ جاءت إلى الكلية منذ ثلاثة اشهر وكل واحد منا يدرك أنها مختلفة.. لقد جاءت من عالم آخر فعلاً..

قلت لها:

ـ"أتمنى أن أكون معك في هذا العالم.."

تقول وهي تنظر لي في شفقة:

ـ"لن تحب هذا يا مسكين.. ربما تصحو يومًا فتجد السماء خضراء والعشب أحمر.. ربما تسمع رائحة الياسمين وتشم النجوم".

ـ"ما دمت معك فلا أبالي لو شممت نهيق الحمير وسمعت الطين"

ضحكت كثيرًا ثم قالت لي في ثبات:

ـ"هل أنت متأكد؟.."

ـ"متأكد."

مدت لي إصبعها وهمست:

ـ"هلم.. اجرح إصبعي وسأجرح إصبعك.. سوف تتبادل الدماء.. وبهذا تصير من عالمي وأصير من عالمك.."

لم يبد لي الأمر صحيًا.. إن التهاب الكبد الوبائي ينتقل بطريقة مماثلة على ما أذكر.. لكن الرومانسية جعلت كل شيء ممكنًا وفعلت كما طلبت وامتزج دمانا..

قلت لنفسي وقتها إنها رومانسية.. كل الرومانسيات يقلن الكلام ذاته..

لكن – الآن يتصلب شعر رأسي – ماذا لو لم تكن تمزح؟.. ترى الأشياء لا كما نراها نحن.. السماء خضراء؟!..

تُرى أين كانت (سلوى) قبل أن تظهر في كليتنا؟.. لا أحد يعرف عنوانها أو رقم هاتفها ولم يرها أحد تأكل أو تشرب من قبل..

وأنا خلطت دمي بدمها!

❁ ❁ ❁

استرجع ما كان في حياتي الشهر الماضي...

صديقي (علاء) هو الذي أحضر اللفافة...

قال لي ضاحكًا:

ــ"لم يجرؤ أحد على فتحها قط.."

ضحكت بدوري في تهكم وتحسستها.. كان ملمسها مخيفًا فعلاً..

قلت له في قلق:

ــ"هذه تهمة خطيرة.. سرقة آثار لا يمكن إنكارها.."

قال وهو يضع اللفافة في يدي:

ــ"من سرق ماذا؟.. قلت لك إنني وجدتها في الأقصر.. ولو لم أدسها في جيبي لفعل أحدهم نفس الشيء.."

قلت له في شغف:

ــ"هل تعرف شيئًا عنها؟.. إلى أية أسرة تنتمي؟.."

مط شفته السفلى بمعنى انه لا يعرف ثم أضاف ساخرًا:

ــ"تتظاهر بالعبقرية.. ولو قلت لك إنها من الأسرة السادسة مثلاً لما فهمت شيئًا، ولما استفدت من هذه المعلومة.."

ثم أردف وهو ينظر حوله في حذر:

ــ"هذه الأشياء تكون ملعونة.. رأيي الخاص ألا نجازف بفتحها.."

قلت في ضيق:

ــ"وهل تريد أن نبقيها للأبد كحرز؟"

ــ"لا أعرف.."

ــ"الفضول قتل القط، وأنا قطٌ كبير.."

ومددتُ يدي أعالج أربطة الكتان المحيطة بها.. كانت هناك لوحةٌ على صدر الشيء.. لوحة دقيقة أنيقة تمثل عين (رع) وقد خرجت منها إشعاعات صفراء.. كأنها شمس أخرى..

ــ"جميلة.. تحفة فنية."

ــ"لكن ما معناها؟"

ــ"غالبًا تعد بأن (رع) سيخرب بيت من يفتح هذه اللفافة.."

وواصلت الفتح.. أخيرًا بدا لنا الجعران العملاق بحجم كف يدك.. كان مثيرًا للاشمئزاز، لكنه جعل أنفاسنا تخفق في انبهار..

قلت لــ (علاء):

ــ"كما ترى.. لم يحدث لنا شيء.. لا أعتقد أن الفراعنة كان عندهم وقت كاف لحماية مومياء جعران.."

اليوم أفكر في الأمر مليًا.. لماذا عين (رع)؟.. ولماذا اللون الأصفر؟

❁ ❁ ❁

أسترجع ما كان في حياتي الشهر الماضي..

هل هي لعنة الشياطين حلت بشباب عابث يلعب بالنار؟ أم هي وصفة كيميائية شريرة ذات آثار جانبية مخيفة؟.. أم أنني فعلاً عبرت لعالم (سلوى) وصرت منه.. عالم الذين يرون كل شيء بلون مختلف؟.. أم أن لعنة كهنة (رع) أصابتني..؟.. أم أنه لا تفسير هنالك؟

كل شيء من حولي أصفر..

الكتب.. الأبواب.. رجال الشرطة.. القطط.. السماء.. السيارات.. شفاه الفتيات.. الأزهار.. حقائب الطلبة.. وجهي في المرآة.. الكلاب الضالة.. عربات الإطفاء.. أوراقي.. ثيابي الداخلية.. شاشة التلفزيون.. وجوه أصحابي.. ساعة الحائط.. أوراق العملة.. الحديقة.. ثوب أمي.. شعر أبي.. الهاتف.. متاجر وسط البلد.. الشاي.. القهوة.. السجائر.. الجعران.. معطف الدكتور (داود)..

أصفر..

وأنا جالس في غرفتي وحيدًا أسترجع خيط الأحداث وأفكر.. ما الشيء الذي جعلني أرى العالم أصفر؟!..

أنا لا أعرف.. فهل عرفت أنت؟

* * *

أخضر

"الواقع أني أكره عملي هاهنا.. الواقع أنني لا أجد جدوى لحياتي ذاتها.. الواقع أن الشيء الوحيد الذي يدفعني للاستمرار هو... الدكتورة (منال).

❁ ❁ ❁

السبت 15 مايو..

الفائدة الوحيدة للملل هي أنك تجد الوقت الكافي لكتابة مذكراتك.. صحيح أنه لا يوجد شيءٌ ذو قيمة في هذه المذكرات، لكنها مذكراتي أنا ولا تعني أحدًا سواي.. لا أحتاج لأن أكون رائدَ فضاءٍ لأحظى بشرف كتابة مذكراتي!

أنا عامل نظافة بالمناسبة، وهذا قد يدفعك لترك القصة والانتقال إلى القصة التالية، لكن من سيتجاوزون امتعاضهم من عملي هذا، وسيواصلون القراءة؛ قد يكتشفون أن حتى عمال النظافة قد يوجد لديهم ما يقولونه في بعض الأحيان..

هذا هو ثاني أيام عملي في مؤسسة (اسم لاتيني معقد لا يمكنني نطقه أو حتى كتابته!) التي تدير سلسلة من الأبحاث العلمية عن أشياء لا يعرف إلا الله الغرض منها بالضبط.. أحدهم يقضي حياته أمام فأرٍ أبيض في قفص، وآخرُ يحقن الفواكه بعقاقيرٍ عجيبة، وهناك من ينظر طيلة اليوم إلى شريحة

ضئيلة عبر الميكروسكوب، ليدوِّن ملاحظاته كل نصف ساعة..

و هناك الدكتورة (منال)..

حين عرض عليّ قريبي - وهو عامل نظافة هو الآخر - العمل هنا، لم أكن متحمسًا على الإطلاق، لكني كنت في حاجة إلى المال.. أي مال بأي طريقة.. ولأنني لا أجيد السرقة أو النصب ومصاب بمرض نادر في العضلات يمنعني من العمل كبائع متجول، بدا أن العمل كعامل نظافة هو الحل الأمثل لي..

أنقل القمامة من سلة المهملات إلى العربة التي أجُرُّها أمامي طيلة اليوم، ثم أفرغ العربة في أنبوبٍ خاص في قبو المبنى.. هذا هو كل شيء، والأمر لا يحتاج لمواهب خاصة كما لاحظت.. المشكلة هي أنني متعلم - حصلتُ على الإعدادية - وعيبُ التعلُّم الوحيد هو أن نفسك قد تعف عن ممارسة الأعمال التي يؤديها الجهلة بنفسٍ راضية مطمئنة..

لكن هناك الدكتورة (منال)..

أعشق القراءة منذ صغري، لكنني من أسرة لا تسمح إمكانياتها المادية بابتياع الكتب إلا المستعمل منها وإن نقصت صفحاته، وها هي المشكلة ذي تتكرر.. أنا هنا أقضي طيلة اليوم، في لا شيء تقريبًا، ولا يوجد أمامي ما يصلح للقراءة سوى تلك المراجع الضخمة، ذات الأغلفة المصقولة،

والكلمات اللاتينية التي تحتاج إلى أكثر من شهادتي الإعدادية لفك طلاسمها..

الحل إذن.. أن أكتب مذكراتي..

وسيلة لا بأس بها لقتل الوقت، وإن كان عليّ تحمل نظرات السخرية من زملائي والعاملين هنا..

عامل نظافة يكتب مذكراته.. ياللهول!!

لكن هناك الدكتورة (منال)..

إنها.. إنها.. زهرة هذا المكان.. النسمة الوحيدة التي تمر عبر الممرات الكئيبة لهذه المؤسسة.. الوحيدة التي أقنعتني بأن العمل هنا لا بأس به، إن كنت سأصيب ابتسامة منها كل يوم.. وأنت لم تر ابتسامة الدكتورة (منال)!

صدقني.. إنها تستحق..

لكن ما الذي تفعله الدكتورة (منال) بالضبط؟!

الواقع أن هذا يستحق بعض الاهتمام..

❁ ❁ ❁

الأحد 16 مايو..

أمتع ما يمكن لإنسان فعله هو أن يراقب الدكتورة (منال) وهي تعمل..

ترتدي المعطف الطبي الأبيض.. تدخل إلى تلك المحمية الطبيعية التي صممتها المؤسسة خصيصًا لها لتمارس تجاربها على النباتات.. وموسيقى هادئة تنبعث من جهاز التسجيل.. بالنسبة لهم – من يديرون المؤسسة – لكل نبات داخل المحمية اسم علمي منمق، وملف بالتجارب التي تمت على هذا النبات، والدكتورة (منال) ذاتها تمثل ملفًا هي الأخرى، يسجل فيه كمّ ما حققته للمؤسسة حتى الآن من نتائج.. هذا بالنسبة لهم..

بالنسبة لي كانت الدكتورة (منال) تبدو كسندريلا وسط الزهور وأوراق النباتات، كأنما تصنع معهم لوحة طبيعية متحركة، هي بطلتها الوحيدة..

كانت الدكتورة (منال) دائمًا ما ترحب بي داخل محميتها، وكثيرًا ما تركتني أراقبها وهي تحمل أصيصَ زرعٍ، لتضعه على جهازٍ عجيب، يُخرِجُ شرائطَ ورقٍ عليها خطوط متموجة..

أيُ أحمق لن يفهم معنى هذه الخطوط، لكن الدكتورة (منال) شرحتْ لي.. إنها تعبر عن إحساس النبات، فهي تنساب بنعومة حين تتوفر للنباتات البيئة المثلى، بينما تتلوى بجنون؛ إذا قطعت أحد أوراق النبات وهو على

الجهاز..

"النبات يشعر ويتألم.. وربما يُحب!"

هكذا قالت لي الدكتورة (منال)..

❁ ❁ ❁

الاثنين.. 17 مايو..

اليوم أخبرتني الدكتورة (منال) أنهم عثروا على فصيلة نادرة من النباتات.. على بذور هذه الفصيلة بالتحديد.. سبع بذور لمزيد من الدقة..

أخبرتني الدكتورة (منال) أن البذرة الواحدة تساوي ثروة، لكنها إن نجحت في زرع أحد هذه البذور في البيئة المناسبة، وقامت بإجراء تجاربها على النبات ذاته، فقد تحقق السبق العلمي الذي طالما سعت إليه..

ساعدتها بنفسي على إعداد أصيص الزرع، ودفنا البذرة الأولى في السماد الصناعي الذي يحتوى على كل ما يشتهيه النبات من مواد وأملاح.. لم يكن الأمر شاقـًـا بالطبع ولو كان، فالدكتورة (منال) تستحق..

أخبرتني الدكتورة (منال) أن الأمر سيستغرق وقتا طويلاً، وهذا معتاد.. وأنا أثق في كل ما تقوله الدكتورة (منال)..

كل ما عليَّ فعله هو أن أدعو الله أن ينبت هذا النبات سريعًا من أجل الدكتورة (منال)..

وهذا ما سأفعله!

❁ ❁ ❁

الثلاثاء.. 18 مايو..

لكم هي متفانية.. لكم هي رائعة..

أراها كل يوم – الدكتورة (منال) ولا أحد سواها! – تعتني بأصيص النبات الجديد، كأنه طفلها الرضيع.. أحيانًا أشعر أن هذه البذور داخل الأصيص هي أول رابط حقيقي بيننا.. كأنها ابننا الذي لن يولد!

نجلس يوميًا نراقب الأصيص لساعات طويلة، منتظرين تلك اللحظة الجهنمية، التي سيخرج فيها البرعم الأخضر إلى السماء، ليعلن عن وجوده.. لكن الانتظار سيطول ونحن نعرف هذا..

رأيتها وقد استبد بها الفضول، تضع أصيص النبات في الجهاز الذي يسجل الموجات التي يصدرها النبات، وقالت:

-على الأقل سنعرف إن كانت البذرة حية..

لكن شرائط الورق التي خرجت من الجهاز، كانت تحمل خطًا مستقيمًا

طويلاً، كالذي يصدره جهاز رسم القلب حين تحين لحظة النهاية.. لقد رأيت جهاز رسم القلب حين كان متصلاً بوالدتيّ – يرحمها الله – وأعرف معنى هذا الخط السخيف جيدًا..

بدا الإحباط على الدكتورة (منال)، وقالت:

-سأتركه للغد، ثم سأجرب مع بذرة أخرى..

حاولت مواساتها، لكنني وكما قلت من قبل، لا أملك لها سوى الدعاء..

وهذا ما سأفعله مجددًا..

❁ ❁ ❁

الأربعاء.. 19 مايو..

لا زلنا ننتظر..

❁ ❁ ❁

الخميس.. 20 مايو..

قررت الدكتورة (منال) الإبقاء على الأصيص الأول، لكنها وضعت البذرة الثانية، في أصيص جديد، ولا زلنا ننتظر..

❁ ❁ ❁

الجمعة.. 21 مايو..

متى يأتي الغد؟!!

* * *

السبت.. 22 مايو..

مزيدٌ من الإحباط!

* * *

الأحد.. 23 مايو..

لم أتوقع أنا أو الدكتورة (منال) تلك المفاجأة المذهلة!..

كنا أول من وصل إلى المؤسسة كعادتنا منذ فترة، لنسرع سويًا إلى المحمية الطبيعية على أمل مستمر في جديد.. أي جديد..

لكننا هذه المرة حين وصلنا كان المشهد أمامنا أشبه بمعجزة..

كان أصيص الزرع أمامنا وقد نما ذلك النبات النادر بصورة جهنمية، في صورة مجموعة ضخمة من السيقان الخضراء الملتفة حول نفسها بتشكيل عجيب معقد، وبارتفاع لا يمكن حدوثه في ليلة واحدة..

ليس هذا فحسب، فأحد الأصيصين كان على جهاز تسجيل الموجات، الذي أخذ يقذف في وجوهنا شرائط ورق تحمل تموّجات عنيفة، لم أر مثلها

من قبل..

لا يمكنني أن أصف لك كيف كانت حالة الدكتورة (منال)، لكني سأتجاوز ذهولها من هذا الذي حدث، وسأنقل لك اللحظة التي أمسكتْ فيها شرائط الورق، لتتفحص التموّجات باهتمام علمي يليق بها تمامًا..

استغرقتْ وقتـًا طويلاً، قبل أن تقول:

- لست أفهم..

تجرأتُ أنا لأسأل:

-هل يتألم هذا النبات؟ أعني ربما لا تناسبه البيئة هنا..

لكنها هزت رأسها لتقول:

-لا... هذه التموّجات طبيعية، لكنها مُضخّمة، كأن غابة كاملة التي تصدرها..

وعادت لتفحُّص الأوراق، مكررة:

-لست أفهم..

لذت بالصمت لأسمح لها بالتركيز، وحين طال صمتها قررت أن أتركها لأواصل عملي – إنني لست المسئول عن مراقبتها هنا – لكني قبل أن أترك المكان، التفتتْ إليّ الدكتورة (منال) لتسأل:

– لحظة... أنا لم أضع هذا الأصيص في الجهاز أمس.. كيف انتقل إذن؟!!

❀ ❀ ❀

الاثنين 24 مايو..

الدكتورة (منال) تغيرت..

لم تعد تلحظ وجودي، بل أصبحتْ لا تلاحظ أيَ شيءٍ يحدث حولها، وقد انصب اهتمامها كله على نباتها النادر، الذي بدأتُ أمقته دون سبب مفهوم..

إنه.. إنه ينافسني على الدكتورة (منال)!

اليوم مررت عليها لمتابعة آخر التطورات، حين حدث ذلك الشيء العجيب الذي أثار هلعي..

كانت الدكتورة (منال) تمسك بأحد أوراق النبات تفحصها بعدسة مبكرة، وكنت أنا عند الباب في هذه اللحظة، أناديها قائلا:

-أي خدمة يا دكتورة (منال)؟

ويبدو أنها كانت مستغرقة تمامًا فيما تفعله، إذا انتفضت على صوتي، والتفتتْ لي بحدة وهي لا تزال تمسك بورقة النبات، لتقطعها دون قصد..

دون قصد لكن النبات لم يقدر هذا..

فجأة تلوت فروع النبات كله بحركة افعوانية عجيبة، وأخذ ينفث ذلك البخار الأخضر في سماء الغرفة..

أخضر.. أخضر.. أخضر.. لثوانٍ استحال لون المكان كله إلى الأخضر..

صوتُ الهسيس الصادر عن النبات امتزج بصرخة الدكتورة (منال) المذعورة، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أقفز في اللون الأخضر أمامي، لأنقذها من أي شيء قد يجرؤ على التعرض لها..

كانت الرؤية منعدمة أمامي، لكن العجيب أن هذا البخار كان بلا رائحة على الإطلاق كأنه مجرد صبغه للهواء، لكنى تجاهلت هذه الحقيقة حينها وأخذت أتحسس طريقي حتى اصطدمت بذراع الدكتورة (منال) لأقبض عليها بقوة، هاتفا:

-لا تقلقي.. سأخرجك من هذا..

لكن يدًا حديدية قبضت على عنقي بغتة لتخرسني، ولتبدأ في اعتصاره بقوة لا ترحم!!

وكرد فعل طبيعي ازدادت قوة قبضتي التي تقبض على ذراع الدكتورة

(منال) فارتفع صوت صراخها أكثر، وقد أصابنا هذا اللون الأخضر – اللعين – بالعمى تمامًا..

كنت أختنق وبدا وكأن حنجرتي ستتهشم في أية لحظة، فتركت ذراع الدكتورة (منال)، لأحاول إبعاد تلك اليد المخيفة عن عنقي لكن دون جدوى..

أختنقُ ببط واللون الأخضر البهيج يغمرني من كل صوب!..

يتحول اللون الأخضر إلى أسود وقد غاب الهواء من جسدي، وتتراخى ذراعي جواري باستسلام وصراخ الدكتورة (منال) يتردد في أذنيّ و... و...

وما حدث بعد ذلك رواه لي قريبي الذي أحضرني إلى هنا..

صراخ الدكتورة (منال) اجتذب الجميع إلى المحمية، حيث تعاونوا على إخراجنا حيّيْن – لحسن الحظ – لكن هذا ليس كل شيء..

شيئان أخبرني بهما قريبي أثارا ذعري، وإلى أقصى حد..

أولاً.. أنه لم يكن هناك دخان أخضر حين دخلوا المحمية... لم ير أحد هذا الدخان!!

ثانيا.. أن اليد التي كانت تقبض على عنقي، والتي كادت تقتلني،

كانت يد، الدكتورة (منال) ذاتها!!

* * *

الثلاثاء.. 25 مايو..

لم أستطع الذهاب إلى العمل، إذ لازلت تحت تأثير صدمة الأمس..

ترى أين هي الدكتورة (منال) الآن؟!!

* * *

الأربعاء.. 26 مايو..

الدكتورة (منال) لم تأت إلى العمل اليوم..

* * *

الخميس.. 27 مايو..

لقد بدأت أقلق على الدكتورة (منال).. إنها لم تأت اليوم أيضًا..

* * *

الثلاثاء.. 2 يونيو..

لقد اختفت الدكتورة (منال)!..

قضيتُ الأيام الماضية في انتظارها ثم بدأتُ أبحث عنها، حتى إنني تمكنت

- بوسيلة ما – من الحصول على عنوان منزلها، وذهبت إلى هناك لأطمئن عليها – وإن كان هذا ليس من حقي في الواقع – لكني لم أجدها هناك كذلك..

أين ذهبت الدكتورة (منال)؟؟!!

❁ ❁ ❁

الجمعة.. 6 يوليو..

لم أعد منتظمًا في كتابة مذكراتي لكن ما حدث اليوم يستحق التسجيل حقا..

في السابعة مساءً كنت أتابع ذلك البرنامج التلفزيوني الشهير، حين سمعتُ طرقات على باب منزلي، فنهضتُ متململاً لأفتح الباب، وأنا أدعو الله ألا يكون الحماس قد استبد برفاقي، ودفعهم للمجيء إلى هنا، لكنى حين فتحت الباب أطلّتْ عليّ الدكتورة (منال) بابتسامتها الهادئة، لتصيبني بحالة من الذهول عجزت معها عن النطق..

كانت هي من نطقت لتقول:

-مرحبا..

-أين كنتِ؟!.. بحثتُ عنكِ في كل مكان.. أعني.. لقد قلت و...

-ارتد ملابسك وهيا بنا..

-إلى أين؟!!

-إلى هناك.. إلى المحمية..

سأتجاوز كل التفاصيل التي لا داع لها وسأقفز إلى اللحظة التي دخلنا فيها إلى المحمية لنجد نباتنا النادر وقد استطال حتى كاد يلامس السقف..

لست أفهم شيئًا في النباتات، لكن نمو هذا النبات غير طبيعي وأنا أثق في هذا..

"هذا النبات غير طبيعي.."

قالتها الدكتورة (منال) وكنت أعرف هذا مسبقــاً، ثم واصلت:

-الدخان الأخضر الذي تنفسناه.. لقد كان ذا تأثير غير طبيعي.. لقد قضيتُ الأيام الماضية في دراسة تأثير هذا الدخان علينا..

سألتها بحذر:

-وهل توصلتِ إلى شيء محدد؟!

-تحسس نبض يدك رجاءً..

-لماذا؟!!

-لأنك لن تشعر بشيء!..

-ماذا؟!!!!

وتحسست يدي بدهشة بحثا عن أي نبض، فتحولت دهشتي إلى ذعر حقيقي حين شعرت بيدي الباردة ميتة تمامًا، لا نبض فيها ولا حياة..

ألقت إليّ الدكتورة (منال) بسماعة طبية قائلة بذات الشرود:

-خذ هذه لو أردت التأكد، لكنني سأخبرك بالنتيجة مسبقًا.. لا نبض... قلبك توقف عن الخفقان.. مثل قلبي بالضبط..

شعرتُ بالسخف مما أسمعه، لكن يدي الباردة ظلت صامتة، لا تنقل إلى أناملي أي نبض، فجربت أن أضع السماعة الطبية على صدري، وبعد إصغاء استمر لبضع دقائق.. تأكدت لي حقيقة أن قلبي متوقف عن العمل تمامًا..!!

خط طويل سخيف... هذا هو ما سيسجله جهاز رسم القلب لو وصلوه إلى صدري الآن..

سألت والأفكار تثور في رأسي:

- وما الذي يعنيه هذا؟!.. هل.. هل متنا؟!!

لكن إجابتها جاءت أكثر غرابة:

- لا... لم نمت... بل نتحول..

❁ ❁ ❁

<u>*السبت.. 7 يوليو..*</u>

من الآن عليّ الانتظام في تسجيل مذاكرتي لتسجيل أي تغيرات تطرأ على جسدي كما طلبتْ مني الدكتورة (منال)..

عادتْ الدكتورة (منال) إلى العمل، لتواصل دراستها على ذلك النبات الشيطاني، المستمر في النمو، حتى كاد يحتل المحمية الطبيعية كلها، بسيقانه الملتوية، وأوراقه التي تُصدر ذلك الغاز الأخضر إذ قُطّعت..

يجب أن نفهم ما حدث لنا.. يجب.

حين عدتُ إلى المنزل، فحصتُ جسدي أمام المرآة بحثًا عن أي تغيرات، فلم أجد شيئًا غير طبيعي..

لازلتُ نحيفًا كئيبَ الملامح، ولا زالتْ عظامي البارزة تؤكد على فقري المدقع..

فقط لا قلب ينبض رغم استحالة هذا طبيًا أو علميًا كما أكدتْ لي الدكتورة (منال)..

لكننا قررنا الاحتفاظ بهذا كله سرًا، حتى تستطيع الدكتورة (منال) كشف طبيعة ما أصابنا..

ترى هل ستستطيع الدكتورة (منال) فعل هذا حقا؟!!

❁ ❁ ❁

الأحد.. 8 يوليو..

على الأقل أصبح هناك رابطٌ حقيقيٌ بيني وبين الدكتورة (منال)..

حالتنا العجيبة أزالتْ حواجز كثيرة بيننا، وأصبحت أقضي جمّ وقتي معها في المحمية الطبيعية، حتى بعد انتهاء الدوام الرسمي..

لا حظنا أننا فقدنا شهيتنا للطعام، كأنما أصبح جسدنا الميت يأبى أي طعام... كذلك تقلصت ساعات نومنا إلى ساعتين فقط ويبدو أننا في طريقنا للإصابة بالأرق الدائم...

الدكتورة (منال) تحولت إلى آلة رصد، ترقب كل ما يفعله النبات، وتدرس تلك التموجات المتضخمة التي يصدرها، على أمل أن تحمل لنا أي تفسير..

على كل حال لم يحمل لنا اليوم أي جديد..

فقط لاحظت أنني حين جُرِحتْ يدي بطريق الخطأ، لم أنزف أي دم..

سؤال أخر ننتظر أن يجيبنا عليه هذا النبات النادر..

فهل يفعل؟!!!

❁ ❁ ❁

الاثنين... 9 يوليو..

لم نعد ننام وأصبح الإرهاق هو السمة الغالبة عليّ وعلى الدكتورة (منال)..

المسئولون عن المؤسسة لا حظوا وضعنا ولم يبدوا أي اعتراض، ولا بد أنهم أعدّوا ملفًا جديدًا عني يسجلون فيه ملاحظات مبهرة..

لكن ملف النبات ذاته ظل يحمل علامات استفهام لا إجابات لها، حتى قررتْ الدكتورة (منال) إجراء تجربة عجيبة لم أفهمها بالضبط، لكنني سأنقل لك ما قالته لي حرفيًا:

سنحاول تحويل هذه الموجات التي يصدرها النبات إلى صورة أخرى من صور الطاقة، علّنا نفهم ما الذي تعنيه..

وعملاً بهذه القاعدة أحضرتْ الدكتورة (منال) مجموعة عجيبة من الأجهزة، أخذت توصلها بالجهاز الذي يُسجّل موجات النبات..

وأخذتُ أنا أراقب هذا كله منتظرًا أي نتيجة..

على كل حال مرّ اليوم سريعًا دون أن نظفر بهذه النتيجة المرجوة..

و ما زلنا ننتظر..

❁ ❁ ❁

*الثلاثاء.. **10** يوليو..*

يجب أن أسجل كل ما حدث بسرعة فلا وقت أملكه..

اليوم تمكنتْ الدكتورة (منال) من حل لغز هذه التموجات، فلقد استخدمت.. الـ... *لا وقت.. بسرعة..* الكمبيوتر فعلها وبرامج الترجمة حولتْ لنا ما يقوله النبات إلى... *لا وقت.. لا وقت..*

الدكتورة (منال) أوصلت الأجهزة الجديدة بالكمبيوتر الذي قرأت على شاشته هذه الكلمات الرهيبة:

(حان وقت عودتنا... هناك أجساد بشرية تصلح لعملية الانتقال..)

هذه الكلمات كان يصدرها النبات في صورة الموجات المتضخمة، وهذا يفسر كل شيء..

أجسادنا ميتة لأنها لم تعد ملكنا، بل ملكهم..

من هم؟!!

لا أعرف ولن أجد الوقت لأفعل، الدكتورة (منال) وجدت حلاً جذريًا للمشكلة كلها..

إنها تشعل النار الآن في المحمية بعد أن حبستنا فيها.. حاولتُ منعها لكن...

رباااه..

النبات.... إنه....

....

❁ ❁ ❁

الملف (1019) قسم الأبحاث العلمية

إلى هنا تنتهي المذكرات التي عثرنا عليها بعد أن احترقت المحمية الطبيعية، ولولاها لما فهمنا شيئا مما حدث..

الدكتورة (منال) وعامل النظافة المسكين – الذي لا أفهم كيف كان يكتب مذكراته هذه – كانا الضحيتين الوحيدتين للحريق..

يبدو أن الدكتورة (منال) كانت تحاول التخلص من النبات، لكنها فشلت!

النبات لم يحترق كأن النار لا تؤثر فيه بالمرة وهكذا تمكنا من دراسته لنفهم ما حدث.. وما سيحدث..

النبات كان يصدر غازًا خاصًا يؤثر على الأعصاب، ويصيب من يتعرض له بالجنون، وهذا يعني أننا نجحنا...

هذا هو السلاح البيولوجي الكامل كما أردنا، ولولا أننا قررنا التضحية بالدكتورة (منال) لما تأكدنا من فاعليته..

يمكننا الآن إغلاق الملف..

وإعلان أن التجربة نجحت..

د. عادل فهمي

أزرق

يطلقون عليها الزرقة الرميّة..

الاسم نفسه مثير للتوجس.. لكنها علامة مهمة جدًا في الطب الشرعي.. لأنها تحدد الموضع الذي كانت عليه الجثة في الساعات القليلة التالية للوفاة، ولكم من منتحر وجدوا الزرقة الرميّة على ظهره، مما جعلهم يدركون أنه قتل قتلاً على الأرض، ثم علقه قاتله على المشنقة ليخدع رجال الشرطة.. إن القصص المُشابهة كثيرة جدًا..

يطلقون عليها الزرقة الرمية..

وأنا أحب اللون الأزرق، وأكره أن يرتبط بشيء رهيب مثل الموت.. لكن – للأسف – يظل لون الجثث الباردة والأطراف المرشحة للبتر أزرق.. أردنا هذا أو لم نرد..

❁ ❁ ❁

كنت طالبًا فقيرًا في تلك المدينة الصاخبة العجوز.. لا تسأل عن الظروف ولا الضغوط التي جعلتني أعمل في المشرحة.. نحن لا نختار الوظائف التي تُعرض علينا وقد كنت في حاجة ماسة للمال..

كان صاحب المشرحة ومديرها ورئيس مجلس إدارتها هو عم (عثمان).. وهو رجل نوبي ظريف له جلد يشبه الباذنجان الأسود، وكان من أسرة اعتادت العمل هنا منذ دهور. في كل عام تطرح المستشفى مناقصة لمن يتولى

أمور المشرحة لأعلى إيجار، فكان هو يفوز بها في كل مرة، ومَنْ يمنعه من ذلك يكن هو الجثة التالية الراقدة في هذه المشرحة..

والسبب؟.. من قال إن عمل المشرحة ليس مربحًا؟.. إنه حانوتيّ يكسب الكثير، ودخول المتوفين في المستشفي إجباري إلى مشرحته هو.. لا أحد يهرب.. عندها يعامل أهل المتوفى كما ينبغي.. أسعار سياحية لا تسمع عنها إلا في أفخم فنادق البحر الأحمر.. والناس مضطرة إلى الدفع لأنهم يريدون إنهاء عذابهم سريعًا..

كنت أساعده في عمله وبالطبع أنال جزءًا من الغنيمة.. لم أكن أتلقى راتبًا، لكن النسب التي كان يمنحني إياها كانت تكفيني لأسدد مصروفاتي وأرسل مائتين أو ثلاثة إلى أسرتي في القرية..

طبعًا لم يكن أحد في بلدتي يعرف طبيعة عملي.. كنت أزعم لهم أنني أنسخ المستندات في مكتب ما.. لو عرفت أمي بمصدر المال الذي أرسله لتشاءمت وأبت أن تمسسه.. وهو تفكير قاصر طبعًا لأن العمل هو العمل.. لابد من بائس ما يغطس في المجاري لتسليكها، ولابد من بائس ما يصطاد الكلاب المصابة بالسعار والجرب، ولابد من بائس ما يقوم بربط فكوك الموتى بالشاش.. هذه أشياء كصلاة الجنازة: إن قام بها واحد سقطت عن الجميع، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع..

على أن لهذه المهنة نفعًا لا شك فيه. إنها تعلمك التواضع.. تجعلك متدينًا بحق ما لم تكن لصًا أصيلاً مثل عم (عثمان).. أنت هنا تعيش في المنطقة الفاصلة بين الموت والحياة، وكل زبائنك كانوا يمزحون ويدخنون ويدبرون المكائد منذ أربع أو خمس ساعات.. الآن هم أشياء رهيبة ترقد بانتظار من يريحها الراحة الأخيرة.. إنها لعبة كراسٍ موسيقية.. اليوم أنت واقف هنا وهم رقود. غدًا أنت راقد على هذه المنضدة وهناك من يقف..

لهذا كنتُ أُكثر من قراءة القرآن.. وأحافظ على ميقات الصلاة بدقة..

سوف أعترف بأن هذه الفترة هي أخصب فترات حياتي من الناحية الدينية..

أعتقد أن الأمر يتعلق بدرجة معينة من الشفافية.. ثمة حاسة سابعة أو ثامنة قد استيقظت في أعماقي مع هذه التجربة الغريبة.. التدين.. معايشة الموت.. العزلة.. الجهد الصادق.. وفي الأيام الأخيرة تكررت معي تلك الحوادث الغامضة التي تمر بنا من حين لآخر.. تفكر في صديق فتجده أمامك.. تشعر بانقباض فتحدث كارثة.. الخ.. لكني لم أحاول أن أتوقف كثيرًا مع هذه الأحداث..

بدأ كل شيء أمس..

في التاسعة مساء دخلتُ المخفة إلى المكان.. حينما تمارس أية مهنة لها

علاقة بالطب أو الموت، لابد أن تُميِّز أذناك صوت الخفة وهي بعد في الممر الخارجي.. وكنت وحدي تلك الليلة..

كان الراقد على الخفة رجلاً في الخمسين من العمر.. يبدو أنه ليس معدمًا..

وقال لي أحد الرجلين اللذين جاءا به، وهما رجلان لم أرهما قط هنا:

ـ"وجدوه ميتًا في الزقاق المجاور.. لا يبدو أن هناك جريمة في الأمر.. لا أوراق.. إنه ناقص الأهلية.."

وقال آخر وهو يجفف عرقه:

ـ"ربما كانت أسرته تفتش عنه الآن.. وربما لم تكن له أسرة.. لا نعرف.."

رفعت الملاءة وتأملت وجهه ثم سألت في حيرة:

ـ"ما سر هذا اللون الأزرق الذي تلون به جلده بالكامل؟"

قال أحدهما بلا مبالاة:

ـ"وما الفارق؟... لو كان لونه أحمر لسألت السؤال ذاته.."

وقال الآخر بلا مبالاة هو أيضًا:

ـ"ربما كان يشتغل في الأزرق"

قالها دون أن يضحك، وكذا لم يضحك أحد.. هناك دعابات ثقال لكنها لا تطالب بجمهور أو حق أداء علني.. ثقال لمجرد إخراج الملل أو الضغط العصبي.. على كل حال لابد أن عيني ليستا على ما يرام.. فأنا اشعر أن المسعفين أيضًا لونهما أزرق.. معنى هذا أنني أخرف..

وهكذا تسلمتُ هديتهما الرهيبة، ففتحت درج الثلاجة الكبير ووضعت فيها ذلك البائس..

لم يكن الطب دراستي لكني قرأت كل ما وقع في يدي من مواضيع طبية كتبت بالعربية.. هناك حالات معينة من الموت بالغازات تسبب هذا اللون الأزرق.. أول أكسيد الكربون يجعل لون القتيل أحمر لذا يسمونه (الموت الأحمر).. لن أعرف الإجابة لكن دعني أؤكد لك أن زرقة هذا المتوفى كانت تختلف عن زرقة الموتى التي أعرفها.. كأن هناك من ألقاه في دلو به طلاء أزرق بمجرد وفاته..

بعد ما خلا المكان عدت إلى جلستي السابقة.. كوب الشاي ولفافة التبغ.. أعترف أنني كنت أدخن من حين لآخر.. وهي خطيئة بالنسبة لمن هو مثلي في حاجة لكل مليم، لكني كنت أسمح لنفسي بها من وقت لآخر لأعتقد أنني (أمرح).. جوار لفافة التبغ الكتاب الذي كنت أدرس فيه.. أنا طالب في كلية الآداب برغم كل شيء..

حاولت أن أركز فيما أقرأ لبعض الوقت، لكن شعورًا غريبًا من التوتر استبد بي.. أعرف هذا التوتر غير القابل للتفسير والذي يحدث أحيانًا ويمضي أحيانًا... خوف؟.. لا.. لقد كفّت هذه المهنة عن أن تثير في أي شيء سوى الملل..

خيل إلي أنني أسمع صوتًا ما من داخل الثلاجة.. هذا أيضًا شيء معتاد في المهنة.. لابد حينما تكون وحيدًا ليلاً أن تسمع جلبة من حيث يرقد الموتى.. ظاهرة ينتصب لها شعر رأسك في البداية.. ثم تتعلم مرة بعد مرة أن المصدر الوحيد للصوت هو عقلك المكدود..

لكني قررت برغم كل شيء أن أنهض متثاقلاً.. اتجهت إلى الثلاجة وفتحت درجها العملاق.. كان المتوفى حيث هو لم يتحرك.. أزحت الملاءة وأعدت النظر إلى وجهه.. بالفعل تتزايد الزرقة أكثر فأكثر.. لابد من تفسير لهذه الظاهرة.. إنه رجل أشيب الشعر له ملامح نبيلة.. أنفه معقوف كمنقار النسر وله شفتان رفيعتان حازمتان.. واضح انه لم يتعذب كثيرًا أثناء احتضاره..

قرأت الشهادتين وأعدت غلق الدرج وعدت إلى منضدة الدراسة..

بعد قليل سمعت صخبًا.. أعرف هذا النوع من الضوضاء..

كان القادم هو (مدير أعمالي).. عم (عثمان) جاء ليمضي بعض الوقت هنا ويتفقد الأحوال..

لم يكن وحده.. كان معه رجلان.. وقد حياني بطريقته النوبية الظريفة ثم اقتادهما إلى الحجرة الجانبية الصغيرة التي كانت حمامًا ثم جعلها مكتبًا له، وهو أغرب مكتب يمكن تخيله.. مكتب له دوش يتدلى من السقف وماسورة تنحدر على السيراميك.. ثم ينتهي كل هذا فجأة.. وكان في المكان مكتب عتيق صدئ من طراز (إيديال) وثلاثة مقاعد خشبية من طراز مقاعد المقاهي.. لهذا كان يطلق على المكان ببساطة اسم (الدورة)..

دخلت إلى حيث جلس مع الرجلين وانتشر الدخان في هواء الغرفة الضيقة، فنقلت له خبر القادم الغريب.. هز رأسه بمعنى أنه مطمئن لكل شيء ما دُمتُ موجودًا..

كان يتكلم بينما أنا أنظر إلى الرجلين..

هذا الوجه..

الرجل الذي يلبس قميصًا أبيض.. هذه الملامح الوقور.. هذا الأنف المعقوف الشبيه بمنقار النسر.. هذا الشعر الأشيب..

أين رأيت هذه الملامح من قبل؟

❁ ❁ ❁

بعد قليل خرج عم (عثمان) من الغرفة ليرى ما لدي..

كنت أجلس في تلك القاعة رديئة التهوية والإضاءة أطالع كتبي عندما دخل علي، فسألته عن هذين القادمين معه.. قال وهو يصلح عمامته:

ـ"صديقان.."

ثم اتجه إلى الثلاجة ففتحها.. وسمعته يشهق..

نظرت إلى حيث وقف وأنا أتوقع منه تعليقًا عن اللون الأزرق، لكنه قال في حيرة:

ـ"أين وضعته؟"

دنوت منه أكثر فوجدت أن الدرج خال.. نعم.. خال تمامًا!

صحت في هلع وغباء:

ـ"كان موجودًا.. أقسم بالله أنه موجود.. أنا لا أفهم.."

نظر لي بعينيه التي يكتسي بياضهما باللون الأصفر كطبيعة السود ولم يعلق.. فقط قال لي:

ـ "يبدو أنك مرهق.. هل غادر (المرحوم) الثلاجة؟.. لا أظن.."

قلت في جنون:

ـ"طبعًا لا . أنا لم أفارق المكان.. لم يسرقه أحد.. أنا لا أفهم.. أنا لا أفهم..!"

ثم صحت وقد تذكرت:

ـ"رجلا سيارة الإسعاف أحضراه.. سوف يؤكدان لك الأمر.."

قال وهو يغلق الدرج:

ـ"إما أن الجثة سرقت منك وأنت جالس هنا كأنك (مقطف) وإما أنك تكذب أو تتخيل.."

ـ"لا هذا ولا ذاك ولا ذاك.."

في هذه اللحظة ناداه أحد الرجلين فنظر لي بسرعة ثم عاد إلى الغرفة التي كانت حمامًا فصارت مكتبًا..

كنت أنا أفكر بلا انقطاع... الرعب الحقيقي هو أن حواسي تخدعني.. أفضل أن يكون الميت قد نهض وفر، لكن لا تقل لي من فضلك إن حواسي تخدعني..

هكذا ظللت أحك فروة رأسي كالمجانين محاولاً أن أفيق.. أفيق من ماذا؟.. أفيق من حالة اللاوعي التي تمر بي..

لا أعرف متى رحل الثلاثة.. لابد أن عم (عثمان) لم يرد أن يضايقني

ثانية.. غدًا سيناقش هذه الأمور معي بشكل أوضح..

وأمضيت الوقت أنظر في الكتاب غير عالم كيف يجب أن أفكر..

هل أصارحك بشيء؟.. كانت هذه أسوأ ليلة في حياتي.. لقد مر الوقت ثقيلاً واستعدت كل المخاوف القديمة من الموت..

على أنني في الثانية بعد منتصف الليل تذكرت أين رأيت تلك الملامح التي رأيتها على الجثة.. رجل أشيب الشعر له ملامح نبيلة.. أنفه معقوف كمنقار النسر وله شفتان رفيعتان حازمتان.. إن هذا بالذات هو الرجل ذو القميص الأبيض الذي كان يجلس مع عم (عثمان) !..نعم.. لاشك في هذا..

لابد من تفسير لهذا.. هل فر الميت من الثلاجة ليجلس مع صديقيه؟.. هل هو أخو المتوفي التوأم مثلاً؟

المشكلة إنني لو صارحت عم (عثمان) بهذا الرأي لأضفت نقطة أخرى إلى سجل خبالي..

❁ ❁ ❁

في الرابعة صباحًا سمعت صوت المحفة.. هذه المرة رأيت مسعفيْن يدخلان المشرحة وهما يحملان محفة عليها وجه مكسو بملاءة..

كنت أعرف هذين الرجلين جيدًا، وقد حياني أحدهما وقال:

ــ"وجدوه ميتًا في الزقاق المجاور.. لا يبدو أن هناك جريمة في الأمر.. لا أوراق.. إنه ناقص الأهلية.."

وقال آخر وهو يجفف عرقه:

ــ"ربما كانت أسرته تفتش عنه الآن.. وربما لم تكن له أسرة.. لا نعرف.."

هذه المحاورة تبدو مألوفة.. دنوت من الجثة وكشفت الوجه.. وارتجفت.. للحظة كف قلبي عن الخفقان.. هذه المرة بلا لون أزرق ولا شيء.. مجرد جثة يبدو السلام على وجهها . إنه الرجل ذو القميص الأبيض.. الرجل أشيب الشعر بملامحه النبيلة وأنفه النسري وشفتيه الرفيعتين..

لقد مات. إنه صديق عم (عثمان).. لا شك في هذا..

وحينما انصرف المسعفان رحت أفكر في معنى هذا كله.. جثة زرقاء تصل في الساعة التاسعة مساء.. بعد هذا تختفي الجثة.. ثم تصل من جديد غير زرقاء في الرابعة صباحًا..

صاحب الجثة بلا شك هو ذلك الرجل الذي كان جالسًا في (الدورة).. ما معنى هذا؟

يقولون إن الميت يكون ميتًا بالفعل أربعين يومًا قبل موعد وفاته الحقيقي.. في هذه اللحظات يجلس مع الناس ويتكلم وهو لا يعلم وهم لا يعلمون أنه ميت في وقت مقترض.. حكيت هذه القصة ذات مرة لعم (عثمان) فضحك ساخرًا، وقال إن هذه خرافات..

عندهم في النوبة يعتقدون أن هذه الفترة نصف يوم..

ثم ماذا؟.. لا اذكر كل ما قاله لي..

الآن لنفترض أن حالة الشفافية التي مررت بها منحتني هذه الموهبة العجيبة.. لقد رأيت الرجل ميتًا قبل أن يموت فعلاً بسبع ساعات أو أقل.. وكانت العلامة التي مُنحتُها هي أنني رأيته مصبوغًا باللون الأزرق.. بعد هذا فارَقَ الرجلُ الحيُّ رفيقيْه وأمضى أمسية مع رفاقٍ آخرين.. أمسية أرهق فيها صحته طبعًا أو دخن جرعة أكثر من اللازم من المخدرات.. كل أصدقاء عم (عثمان) مدمنو مخدرات بالمناسبة.. هكذا أصابته تلك النوبة القلبية في الزقاق المجاور للمستشفى ووجده أحدهم وابلغ الإسعاف..

هل هذا السيناريو ممكن؟

كنت غارقًا في هذه الخواطر في الخامسة والنصف صباحًا عندما تردد الصوت الرهيب من جديد.. هذه من الليالي الصاخبة إذن..

على أنني تصلبتُ عندما رأيت المسعفيْن اللذين كانا يدفعان المحفة.

إنهما المسعفان اللذان رايتهما أول مرة.. اللذان احضرا الجثة الزرقاء.. حقًا إنني أحمق.. لماذا لم أهتم كثيرًا بلونهما الأزرق الذي لا شك فيه؟.. هل هما شبحان؟.. هل هما ميتان؟..

حاولت ألا أظهر جزعي بينما هما يقفان أمامي بحملهما الرهيب..

قال أحدهما:

ـ"شاب دهمته سيارة مسرعة.. إنها ميتة شنيعة"

لم أعلق..

فقط دنوت من المحفة ورفعت طرف الملاءة لأرى صاحب هذه الجثة..

بالفعل كان اللون الأزرق يغمر كلَ شيءٍ.. والآن فقط تذكرت باقي ما قاله عم (عثمان) لي..

قال لي إن هؤلاء الذين يكونون ميتين فعلاً وهم لا يعلمون، يكسبون شفافية خاصة.. إنهم يرون ما لا يراه غيرهم.. يرون أولئك الذين سيموتون مثلهم في الساعات القادمة!..

الآن أتذكر هذه الكلمات وأفهم لماذا اكتسبتُ هذه الشفافية..

إن الوجه الأزرق الراقد على المحفة كان وجهي أنا!

إن الوجه الأزرق الراقد على المخفة كان وجهي أنا!

* * *



الأزرق النيلي.. بداية العالم ونهايته.. هو قبل الأشياء وهو بعد الأشياء..

يقول (سليمان) وهو يشمّر كميّ القميص إلى منتصف ذراعيه المفتولتين:

ـ"أنا لا أتكلم عن الغروب والشروق.. تلك الأوقات التي يحلو للشعراء أن يتغزلوا في النيل فيها.. أغلب هؤلاء (أفندية) لا يفارقون مقاهيهم في وسط القاهرة.. هؤلاء لا يعرفون أنهم يتكلمون عن اللون الذهبي أو القرمزي.. أنا أتحدث عن لحظة بعينها من النهار.. اللحظة التي يصير فيها النيل أزرق نيليًا فعلاً كما في الكتب.. كما خلقه الله.. تحدث أنت عن النيل في الليل.. عندها أنت تتكلم عن الأسود.. تحدث عنه عند الغروب.. عندها تتحدث عن الأرجواني.. لكنني أتحدث عن النيل حينما يكتسب هذا اللون الأزرق النيلي الهادئ النادر.. تشعر لحظتها أن هذا هو النيل حقًا وقد نزع عنه أقنعة التكلف والادعاء.."

كنت أفهَمُ ما يقول إلى حد ما.. الرسام التأثيري الباريسي الذي لم يكن يرسم محطة (سان لازار) إلا في ساعة معينة من اليوم.. لا قبلها ولا بعدها، لأنه يبحث عن نوع معين من الإضاءة.. وبعد أن تتلاشى الإضاءة التي يريدها كان يحمل فرشاته ولوحة الرسم ويعود لغرفته في

(مونبارناس).. هل كان (مونيه) أم (مانيه)؟.. ما زلت أخلط بين الاسمين..

كنت أفهم هذا وأفهم سر تعلق المرء باللون الأزرق النيلي الهادئ.. حتى في سحر (الكابالا) اليهودي يرمز هذا اللون للطبقة الرابعة (شسيد = الرحمة).. أي أنه يرمز إلى الأب.. إلى الحنان.. إلى العدل والخير والاتزان الكوني.

كان (سليمان) يدرس في المدينة، لكنه كان يصر على أن يعود إلى (كفر الزيات) كل يوم.. وفي الساعة المختارة كان يتوجه إلى النيل.. يمشي بضع دقائق على ضفته أو يستقل قاربًا يجذف به مطاردًا الأزرق النيلي الجميل.. لهذا – ولأن هذه العادة ترافقه منذ الصبا – صارت له كتفان عريضتان تذكرانك بأكتاف المصارعين، وكان حجم ذراعه جديرًا بالتأمل.. لن تكسب أية مشاجرة معه أبدًا.

❁ ❁ ❁

إنها الثالثة عصرًا في هذا الوقت من السنة..

هو يعرف الوقت بالضبط.. ويعرف أن الموعد يختلف في الشتاء..

كان هذا وقتًا ميتًا خاملاً.. في الصيف تكون الشمس عمودية تمامًا

تجعل الجميع ينفرون من المشي.. في الشتاء يكون الطلبة والموظفون قد عادوا لديارهم..

لا أحد على الكورنيش إلا بعض العشاق من القرى المجاورة.. طلبة غالبًا.. ينظرون حولهم في رعب.. هنا يختلف العشاق عن عشاق القاهرة الذين ينظرون لك بوقاحة وتحد.. إنهم هنا خائفون مذعورون مستعدون للتفرق في أية لحظة.. ولن يزيد الأمر على بضع جمل تقال بصوت خفيض وسرعة ثم يعود كل منهما لداره يحمد الله على نجاته هذه المرة.

يمشي (سليمان) في ثقة متجهًا إلى السور.. تلك الفتحة التي اجتازها مئات المرات من قبل.. يعبر إلى الضفة الترابية المنحدرة.. يمشي قليلاً إلى أن يقابل (محمد عصر).. المراكبي العجوز الجالس جوار الشط لا يفيق من الحشيش.. العينان الحمراوان المنهكتان الضيقتان.. السحنة المربدة التي تشي بكيف صاحبها.. برغم هذا كان الرجل لطيف المعشر، وهي تلك الصفة التي نلاحظها في الحشاشين المسنين حيث يجعلهم الحشيش أهدأ طبعًا وأقرب للتأمل.

على مسافة مترين يجلس (يوسف).. رجل في الثلاثين من العمر لا يعرف عنه (سليمان) إلا أنه يصطاد.. يصطاد دائمًا.. يصطاد للأبد.. القبعة القماشية الممزقة على رأسه و(الغلق) الذي يحوي شيئًا ما،

والصنارة الطويلة المتدلية في الماء أبدًا.. لم يره قط يستخرج سمكة من الماء.. لكنه صار من ضروريات النيل..

يسأل (محمد عصر) عن الأحوال فيقول هذا إنها (زفت) كالعادة.. ويضحك حتى يشخشخ صدره من فرط ما فيه من بلغم..

وبحركات الواثق الذي فعلها مئات المرات من قبل ينزع (سليمان) حذاءَيْه ويلقيهما في القارب الخشبي، ثم يدفعه ليبتعد مسافة عن الضفة ثم يثب فيه.. يفعلها من دون أن يطلب الإذن من صاحبه.. لقد قضت العادة على الفضول أو التساؤلات، وقد اتفق هؤلاء القوم ضمنًا على أن يفعل كل منهم ما يريد دون أن يسأله الآخرون أو يسألهم هو..

يبتعد القارب ليتوغل في النهر الواسع.. جزر ورد النيل تحيط به فيخترقها.. هذه اللحظة بالذات أثيرة إلى نفسه. يحرك المجداف بألفة وثقة قاصدًا تلك البقعة التي يعرفها جيدًا.. البقعة التي يرى فيها اللون الأزرق النيلي.

يجب أن نتوقف هنا لنؤكد بعض الحقائق.. لم يكن (سليمان) شاعرًا.. ولم يكن يتمتع بثقافة خاصة.. فقط كان النداء يدعوه كل يوم ليرى هذا الأزرق العظيم.. لم يكن يهتم بتحليل مشاعره، ولا يهتم بفهم ما يدور بخلده؛ فقط كان يريد أن يُترك وشأنه وأن يسبح في هذه الزرقة إلى أن

يتبدل اللون.. بالنسبة لي ولك لم يكن يتبدّل، لكن عيني (سليمان) الحساستين كانتا تلحظان الفارق.. عندها لايعود النيل نيله، إنما هو نيل الآخرين المتظاهرين بالشاعرية.. نيل (الأفندية) كما كان يحلو له أن يدعوه..

وعندها فقط كان يعود..

أحيانًا كان يتوقف بالقارب عند الضفة الأخرى.. ويُخرج من الكيس البلاستيكي كتابًا من كتب الجامعة، ويحاول أن يقرأ شيئًا.. كان يدرس الحقوق.. وكان يكره الحقوق.. لكنه كان يحاول بضمير مخلص أن يفعل ما يفترض منه أن يفعله.. والنتيجة: لا شيء.. حروف زائغة ومعان لا تستقيم.. سرعان ما تنزلق عيناه فوق الأوراق لتستقرا على الماء.. ولا يدري متى ولا كيف ينغلق الكتاب ليعود إلى الكيس..

هل كان واقعًا في الحب؟.. أنا لا أعرف.. لا أحد يعرف.. أراهن على أنه هو نفسه لا يعرف.. إن تلك النظرات الخاوية الزائغة أبعد ما تكون عن نظرات إنسان يعرف نفسه..

إذن فيم كان يفكر وهو ينظر للماء؟..

متى بدأت القصة؟.. أنا لا أعرف.. هو لا يعرف.. لا أحد يعرف..

* * *

الأزرق النيلي.. بداية العالم ونهايته.. هو قبل الأشياء وهو بعد الأشياء..

تقول (عواطف) وهي تحكم ربط الإيشارب النيلي حول عنقها:

ـ"قليلات يفهمن ما أتكلم عنه.. أنا أتحدث عن لحظة بعينها من النهار.. اللحظة التي يصير فيها النيل أزرق نيليًا فعلاً كما في الكتب.. كما خلقه الله.. تشعر لحظتها أن هذا هو النيل حقًا وقد نزع عنه أقنعة التكلف والادعاء.."

لا تعرف سر هذا النداء الغامض الذي كان يدعوها إلى النيل في هذه الساعة من كل يوم.. إنها تعيش في (كفر الزيات)، ولم تكن تعاني كثيرًا في البحث عن مأمورية ما تدفعها للخروج في هذه الساعة.. إن الوقت حول العصر على كل حال.

كانت طالبة في الثانوية التجارية، ولم تكن رائعة الجمال لكنها كانت ممشوقة القوام.. ولو رأيتها وهي تمشي بسمرتها فاردة ظهرها جوار النهر لخيل إليك إنها (إيزيس) ذاتها، وكأنها تفتش عن أشلاء (أوزيريس) المتناثرة هنا وهناك.. هل ترى ثيابها الرخيصة؟.. إنها تهيم حبًا بهذه الدرجة من الزرقة بالذات..

كانت ترى ذلك المراكبي العجوز الجالس يدخن والذي لا يفيق أبدًا،

وذلك الصياد الذي لا يصطاد شيئًا أبدًا.. ترى بائعة اللب وذلك الصبي الذي يقف بكيزان ذرة لا يبيعها أبدًا..

كلها معالم تحفظها جيدًا، وهي تمشي جوار النهر العظيم ذائبة في الأزرق النيلي..

هناك من يعاكسها من هؤلاء الفتية الذين تأخروا في العودة من مدارسهم.. تعرفهم من ثيابهم الموحدة والكتب التي يحملونها.. إنهم لا يفهمون لمشي فتاة وحيدة مثلها إلا معنى واحدًا.. وكل واحد منهم يتمنى أو يريد أن يبدأ قصة ما، لكنها لا تبالي بهذه السخافات؛ هذا الذباب الذي يمنعها من النظر إلى النيل بلا انقطاع.

تمشي على النيل وهي تنظر للضفة الأخرى بحنين.. لو استطاعت أن ترمي بنفسها فيه.. لو كانت لها حرية أن تركب قاربًا من هذه القوارب كما يفعل ذلك الفتى مفتول العضلات هناك.. لكن مجتمعًا كمجتمعها قاس جدًا على المرأة ولن يفهمها أحد..

فقط الرجل يحق له أن يخرج متى شاء، ويعود متى شاء.. ويستأجر قاربًا يجوب به الماء متى أراد.. ولو قرر في لحظة أن ينزع ثيابه ليثب في النيل لما اتهمه أحد بالوقاحة..

الوقاحة الحقيقية هي أن ترى شيئًا غريبًا في هذا..

كانت تتنهد.. ثم تكمل جولتها وتعود.

حقًا هي لا تعرف سر وَلَعِها باللون الأزرق النيلي..

❁ ❁ ❁

الأزرق النيلي.. بداية العالم ونهايته.. هو قبل الأشياء وهو بعد الأشياء..

يقول (يوسف) وهو يضع في الشص دودة أخرى:

ـ"أنا لا أتكلم عن ذلك النيل الذي تراه في (السيما)؛ نيل (أحمد) و(منى) وهذا الهراء.. النيل الذي يدعوني إليه هو النيل عندما يبدو نيلاً.. أزرق.. نيليًا.. جميلاً صافيًا.."

كان يعرف أنه صيادٌ خائب.. أسوأ صياد عرفه في حياته..

لكن ما أن يأتي الوقت حتى يجد نفسه يحمل ديدانه وصنارته ويضع القبعة القماشية على رأسه ويهرع إلى النيل.. يمر جوار عم (محمد عوف) العجوز الذي لا يفيق من الحشيش والذي يتظاهر بأنه مراكبي محترف.. اسمه (محمد عوف)..

لقد أخبره بهذا وأخبره أن الحمقى يحسبون اسمه (محمد عصر).. لا يهم.. عندما تصير في سني لا يهم.. إن القبر لا يبالي باسم العظام

الراقدة فيه.

يقول عم (محمد):

ـ"لا يمكنك أن تصطاد (بسارياية) واحدة في هذا المكان وفي هذا الوقت.. السمك لا يأكل الآن يا بني.. يجب أن تنتظر الغروب.. واذهب هناك.."

ويشير بيده الراجفة إلى بقعة ما يحفها ورد النيل، ويمر بها في هذه اللحظة قارب الفتى مفتول العضلات الذي يراه كل يوم..

كم مرة قالها له العجوز؟.. وكم مرة لم يصغ له..؟

إن الصيد آخر شيء يريده.. كل ما يريده – منذ نعومة أظفاره – هو أن يملأ عينيه بالأزرق النيلي..والصيد مجرد مبرر واه..

تلك الفتاة التي تأتي كل يوم تمر به.. معقولة.. ليست جميلة لكن جسمها لا بأس به أبدًا... الغريب أنه لم يشعر لحظة في حياته بأنه بحاجة إلى امرأة.. هل هو طبيعي؟.. لا يعرف..

❁ ❁ ❁

أنقل هنا كلمات عم (محمد عوف) أو عم (محمد عصر):

ـ"كان ذلك اليوم يختلف.. لم يعد واحد منهم وقد بدأ الليل

يدنو..

لم أفهم ما يحدث.. إن عيني مريضتان سقيمتان، لكن كان بوسعي أن أرى ذلك الفتى (سليمان) الذي صار زبوني الوحيد يجوب النهر باصرار... يدور بالقارب وسط جزر ورد النيل.. ثم يعود بلا نية للهبوط على الضفة..

في اللحظة ذاتها رأيت أن (يوسف) الصياد لم يجمع حاجياته ويرحل.. لقد كومها جواره وراح يرمق النهر في إصرار غريب.. بعد قليل اقتربت تلك الفتاة التي تأتي هنا كل يوم.. وقفت تنظر للماء..

لقد غربت الشمس الآن ولونت الماء بلون أرجواني غريب..

لكن الفتاة لم تغير وقفتها.. وبائعة اللب لم ترحل.. الكل يقف على ضفة النهر يرمق الماء بإصرار لم أفهمه..

ثم رأيت القارب يدنو أخيرًا من الضفة فيترجل منه ذلك الفتى..

صحت مناديًا:

ـ"تأخرت اليوم.. إن لنا حسابًا خاصًا.."

لكنه لم يقل شيئًا.. فقط وقف مع الواقفين ينظر للماء..

ثم رأيتهم يمسكون بأيدي بعضهم البعض.. لم افهم معنى هذا.. إنهم لا يعرفون بعضهم البعض إلى هذا الحد.. رأيتهم يخطون بخطى ثابتة نحو الماء..

لا تقاطعني!.. أعرف أن كل ما أقوله يحوم حوله الشك.. ستقولون إن الحشيش أطار صوابي.. نعم.. هذا جائز.. لكني أقسم بقبر ابني الأكبر أنني رأيتهم يمشون نحو الماء.. بلا تردد ولا خوف ولا أي شيء.. هل تريد اكثر؟.. أقسم لك أنني رأيتهم يمشون فوق الماء!.. يمشون.. يمشون.. وسط ورد النيل العائم..

ونظرت حولي فلم أر أحدًا أشهده على هذا المنظر الرهيب.. لو كان أحد قريبًا..

رأيتهم الآن قد وصلوا إلى منتصف النهر ثم بلا أية مقاومة ولا كلمة واحدة رأيتهم يغوصون في الماء.. يغوصون.. لا شيء سوى الفقاقيع.. لا شيء سوى دوامات الماء..

لقد اكتمل الظلام..

ولم أعد أتبين شيئًا إلا هذه البقعة السوداء في وسط النيل.. والتي أقسم لك إنهم كانوا يقفون عليها منذ ثانيتين..

تقول إنني أخرف.. لا ألومك كثيرًا.. أنا نفسي أشك في عقلي الآن..

لا عليك.. انس ما قلت.. انسه..

❁ ❁ ❁

لكني لم أنس ما قال..

لم أنسه قط وما زلتُ أعتقد أنها لحظة عابرة من صفاء الوعي جعلته يرى ما رآه.. هؤلاء الفتية كانوا يتلقون نداء النهر منذ أعوام.. فما معنى هذا؟.. ثم جاءت اللحظة وسرعان ما اتجهوا إلى الماء ليغوصوا فيه بلا اتفاق مسبق ولا ترتيب..

التحول..

هذه هي الكلمة الصحيحة.. لقد تم إعدادهم لشيء كهذا طيلة حياتهم.. كان هذا النداء الذي لا يعرفون كنهه ورافقهم عدة أعوام.. ثم تم التحول وهكذا انتقلوا إلى طور آخر من حياتهم.. طور لا نعرف ما به..

دودة القز تلتهم أوراق التوت ولا تعرف السبب.. وفي لحظة بعينها تبصق خيوط الحرير لتدخل في طور الشرنقة..

ما اليد الخفية التي اختارت هؤلاء ولأية أغراض؟..

عشرة أعوام أو أكثر من الإعداد.. لماذا؟.. هل ليموتوا غرقًا أم ليكونوا أبناء النهر؟

إلام صاروا؟.. ولماذا لم يجد أحد جثثهم قط؟

❁ ❁ ❁

عم (محمد عوف) أو عم (محمد عصر) يجلس عند منتصف الليل جوار النهر..

إن الجو بارد لذا أعد لنفسه هذا (الخوص) الذي يقيه شر البرد، وهو هناك جالس يشرب الشاي ويدخن الجوزة.. ويسعل..

بالنسبة له لا شيء يهم.. رأى هذه الظاهرة أم لم يرها لا شيء يهم..

القبر لا يبالي إن كانت العظام الراقدة فيه قد رأت عجبًا أم لا، كما لا يبالي إن كان اسم صاحب العظام (محمد عوف) أو (محمد عصر)..

والحشيش.. صديقه الدائم.. لقد دخنه قبل أن يرى ما رآه فلم يستوثق منه.. اليوم يدخنه بعد ما رآه فنسى أكثره.. لكنه سيعرف الكثير بعد دقيقتين.. بعد دقيقة واحدة.. بعد ثوان..

إن الماء يتحرك بجوار الضفة..

يخيل إليه أن شيئًا يرتفع من هناك..

الآن يرى بوضوح على ضوء النيران ذلك الشخص الخارج من الماء، والذي ابتل شعره واختلط بالأعشاب، وانتفخت ملامحه كالغرقى..

لكنه الوجه ذاته.. لن ينساه أبدًا..

(سليمان) يقف هناك ويمد يده له.. وبصوت مبحوح خافت لم يستعمله منذ زمن يقول:

ـ"تعال يا عم (محمد).. لا تخف.. سأريك شيئًا لم تره من قبل.."

إن الماء لا يبالي بأسماء الجثث الغارقة فيه، إن كانت (محمد عوف) أو (محمد عصر).. كما أن الحشيش جعل جسدك واهنًا متراخيًا عاجزًا عن الفرار أو الصراخ أو حتى إلقاء الأسئلة..

لا تخف أيها العجوز..

لا تخف..

❁ ❁ ❁

بنفسجي

لون عينيْ أختها (ميادة) بنفسجي..

لا يمكن أن تتصور مدى تباين الآراء حول هاتين العينين.. كأننا نناقش قضية الشرق الأوسط.. إن أباها يؤكد أنهما زرقاوان.. (مراد) حبيبها يقول إنهما كحليتان.. أستاذ (فكري) قال إنهما سوداوان..

(مها) فقط تؤمن يقينًا أن عينيْ أختها بنفسجيتان..

الكل يضحك.. الكل يتهمها بالسخف.. الكل يتهمها بالهذيان.. لكنها واثقة مما تقول.

فيما بعد قرأت أن عينيْ (تشيكوف) الكاتب الروسي العظيم كانتا علامتيْ استفهام بالنسبة لكل من تعامل معهما.. لم يتفق أحد قط على لونهما.. هذا يعني أن الأمر وارد.. ثمة أعين لا يعرف أحد لونها يقينًا...

* * *

لا تذكر متى لاحظت هذه الحقيقة..

ربما لاحظتها يوم جاء (مراد) لدارها أول مرة.. جلس في الصالون متظاهرًا بالأدب يصغي لكلام الأب الذي لا ينتهي عن مستقبل المنطقة.. من الغريب أن العبقري الذي يفهم كل طلاسم السياسة والدين والاقتصاد والقانون والطب ليس بعيدًا.. إنك تقابله في كل مكان تقريبًا.. إنه جارك..

إنه صديقك.. إنه أبوك.. إنه أول واحد تلقاه في الشارع لو خرجت الآن.. إذن أين الحمقى في عالمنا؟.. إنهم المكلفون رسميًا بهذه الأمور..

كان (مراد) يتظاهر بالإصغاء ويعتصر كأس العصير.. كم تحب هذه البسمة المهذبة نصف الساحرة على شفتيه والتي تراها كثيرًا أثناء عمله في الإدارة صباحًا..

لكن الابتسامة تلاشت عندما دخلت (ميادة).. صافحته وجلست جوار أبيها، وتلك الرائحة الفواحة تتصاعد منها.. كان وجودها ذاته ملموسًا كأنها طيف.. طيفٌ غريبٌ ساحر.. وقد تساءلتْ (مها) في دهشة عن السبب الذي يجعل أختها تتأنق بهذا الشكل – الذي لم تره قط – لأن عريسًا جاء لأختها..

تلاشت الابتسامة وتظاهر (مراد) بعض الوقت بأنه منهمك لا يلاحظ، ثم فجأة بدأت عيناه تنزلقان نحو (ميادة).. هذه النظرة!.. تعرفها جيدًا!.. لن تنخدع فيها!..

الآن صار يتكلم ببطء ويضغط على كل حرف.. أحيانًا ينسى ما كان يريد قوله.. وقد خرجت (مها) لشأن ما، ثم عادت لتضبطه ينظر إلى (ميادة) بثبات وإفراط بينما الأب يثرثر بلا انقطاع.. نعم.. هو ينظر لها وإن كان يعطي انطباعًا أوليًا بـأنه ينظر نحو الأب.. تذكرت الشاعر الأحول (أبو

العيناء) الذي كتب عن موقف مماثل:

"حمدت اللـه إذ بلاني بحبها * على حول يغني عن النظـر الشذر

نظرت إليها والرقيب يظـنّـني * نظرت إليه فاسترحـت من العـذر!"

هكذا جلست (مها) متعكرة المزاج، فلو كانت هذه قصة مصورة لخرج الدخان الأسود من رأسها كناية عن الغيظ.. هذه الأفعى قد قررتْ أن تفسد أجمل ليلة في حياتها حتى هذه اللحظة..

كانت (ميادة) جالسة وقد أشرق وجهها كالشمس، وكانت تتابع كل حرف يقوله (مراد) وهي توشك على الانفجار ضحكًا أو تُؤمِّن على كلامه كالإماء.. بينما هي – (مها) – جالسة كالضيف الزائد.. لا دور لها على الإطلاق في أي شيء، ولو جاء زائرٌ من المريخ لقال لك إن (ميادة) و(مراد) حبيبانِ يجلسان في وجود عاذلَيــْـن ثقيلي الظل..

عندها أدركت أن عيني (ميادة) بنفسجيتان..

❁ ❁ ❁

كان هذا الشيء يتوهج على الأرض بلا انقطاع..

وانحنت تلتقطه وتتفحصه..

ربما كان ورقة.. لكنها أقرب إلى رقاقة إلكترونية كالتي تراها في الدوائر المتكاملة.. دوائر كهربية رُسمت رسمًا على دعامة من المعدن.. وكان لها بريقٌ غريب..

قالت لأختها:

ـ"ربما كان من الحكمة أن نتخلص منها.. سمعت أن هذه الأشياء تنفجر"

قالت لها وهي تدس الرقاقة في حقيبتها:

ـ"لا أعرف.. ربما كانت مهمة.. أنا لم أتعود التخلص من شيء لا أعرفه"

❁ ❁ ❁

في الصباح قابلت (مراد) في الإدارة حيث كان عاكفًا يصلح ثغرة في برنامج الكمبيوتر الذي صممه..

قالت له في فتور:

ـ"علام اتفقتما؟"

قال وهو يواصل قرع المفاتيح:

ـ"لم نتفق.. كان هذا هو التعارف.. الخطوة الأولى.. الخطوة الثانية هي طلب يدك رسميًا في وجود أهلي.."

ثم حك رأسه في دهشة وسألها:

ـ"غريب.. حسبت أنك تابعت المحادثة كلها.."

قالت في شيء من السخرية المريرة:

ـ"(ميادة) تابعتْ كل شيء.."

هل يتعمد أن يغيظها أم هو فعلاً أبله إلى هذا الحد؟.. لقد قال في افتتان وقد توقف عن الكتابة:

ـ"أختك هذه ظريفة فعلاً.. والأغرب أن عينيها كحليتان!.. لم أر في حياتي شخصًا له عينان بهذا اللون!"

كانت تعرف ولع الرجال الوحشي بإثارة غيرة النساء اللاتي يحبونهم.. لهذا قررتْ ألا تحقق له أي انتصار وقالت في برود:

ـ"أنت دقيق الملاحظة.. لم أنظر في عينها قط في حياتي.. لكنك رأيت هذا وبرغم المسافة بينكما.. عبقري فعلاً!"

هز رأسه وواصل الطرق على المفاتيح..

لكنها قالت في نفسها إنه أحمق.. إن لون عيني (ميادة) بنفسجي..

يكفي هذا.. هذه لن تكون المرة الأولى التي تظفر فيها (ميادة) بكل شيء.. بتقدير المدرسين وحب الأبوين وهيام المعجبين وتصديق المتشككين.. كل شيء..

هناك قصة لـ (مارك توين) تحكي عن أخوين أحدهما مهذب متواضع قانع، والآخر وغد صاحب مزعج.. لهذا كانوا يعطون الأول أقل القليل من كل شيء (لأنه ملاك)، بينما الآخر كان يظفر بأفخر الثياب وأغلى الألعاب (لأنه وقح يصعب إرضاؤه).. الحقيقة أن هذا كان سيناريو حياتها مع (ميادة) تقريبًا..

الأب كان يدلل (ميادة) كثيرًا لأنها الأصغر ولأنها تشبه المرحومة أمها.. حتى في لون العينين الأزرق.. وحتى سن العشرين كان يذهب لكليتها ليصحبها في العودة، بينما (مها) قديرة لا يَخشَى عليها المرء، لذا كانت تواجه حتفها على درجات الحافلة كل يوم وتتلقى ألفَ كوعٍ في وجهها..

أما حينما تمشي الشقيقتان معًا، فقد كانت (مها) تعرف أين ينظر الجميع ولماذا.. فلولا التهذيب لطلب منها الناس أن تتنحى قليلاً كي لا تحجب جمال أختها..

في تلك اللحظات كانت تدرك أن عيني (ميادة) لونهما بنفسجي..

❁ ❁ ❁

متى قررت أن (ميادة) لم تعد كما كانت؟

هذا أيضًا من الأمور التي يصعب إعطاء رأي دقيق فيها.. أنت تفاجأ بأن ابنك الطفل البريء رفيع الصوت صار مراهقًا خشن الصوت والوجه، فلا تستطيع أن تعطي تاريخًا محددًا حدث فيه هذا.. التغيرات التدريجية تجعل تحديد التاريخ مستحيلاً..

الملاحظة الأولى هي أن عيني (ميادة) ليستا بنفسجيتين دائمًا.. لا شك في هذا.. من السهل أن تقول إنها كانت واهمة من البداية.. لكن لا.. هي واثقة من حواسها جيدًا.. لون عينيْ (ميادة) صار بنفسجيًا ثم لم يعد كذلك، ولا مجال هنا للكلام عن عدسات ملتصقة..

أحيانًا أخرى تنظر لـ (ميادة) فتجد أنها كانت حمقاء.. عينا الفتاة بنفسجيتان بقوة.. وفي كل مرة تكلم نفسها عن ألاعيب الضوء.. العين البنية الفاتحة تَخضر أحيانًا أو تبدو ذهبية في أحيان أخرى..

لماذا صارت (ميادة) تأكل أقل فأقل؟.. هي لم تكن شرهة لكنها لم تكن فراشة قط..

ثم عادة الكلام أثناء النوم.. إن الفتاتين تنامان معًا في غرفة صغيرة حميمة هي نموذج لأية غرفة فتيات في مصر.. كانت (ميادة) تنام كالقبر فيما

سبق.. بلا أي صوت.. لا شخير.. لا صليل من الأنف.. لا شيء.

في الفترة الأخيرة هي تتكلم.. أولاً تبدأ في الضغط على أسنانها محدثة صريرًا.. الصوت الذي يحطم أعصاب (مها) فعلاً.. ثم يبدأ الكلام.. لغة لا يمكن فهمها.. تقول أشياء.. أصواتًا غليظة.. أصواتًا خشنة.. أصواتًا خفيضة.. ضحكات خافتة.. ضحكات مائعة..

ثم...

هل حدثتك عن موضوع الضوء البنفسجي الذي يغمر الحجرة؟..

نعم.. أحيانًا تنهض (مها) من نومها مذعورة لتجد أن الغرفة تسبح في ضوء بنفسجي رهيب.. شيء يذكرك بالغروب.. وقبل أن تصرخ أو تحاول الفهم يزول هذا التأثير وتستعيد الحجرة الظلام المحبب السابق.. لقد فسرت الأمر أكثر من مرة بألعاب الضوء.. أثر الظلام على عين كانت نائمة ثم فتحت فجأة.. مثلما تنظر للشمس برهة من ثم تطاردك في كل ركن مظلم من دارك..

هذا بالطبع لو تغاضينا عن جلسات (ميادة) وحدها في الظلام تقرأ!

نعم.. هذا صحيح.. لقد صحت (مها) أكثر من مرة ليلاً لتجد أن (ميادة) تجلس في الظلام الدامس وعلى حجرها كتاب.. وذات مرة سألتها

عما تفعله بالضبط فقالت (ميادة) في ارتباك:

ـ"لا شيء.. أردت مراجعة نقطة في دروس غد ولم أشأ أن أزعجك!"

متى اتخذتْ قرارها؟

هذا أيضًا من الأشياء التي لا يمكن أن نحدد لها تاريخًا..

لقد صحت ذات يوم وقررت أن (ميادة) ليست هي (ميادة)..

هذا هو التفسير الوحيد والمقبول..

❁ ❁ ❁

لعل هذا حدث بعد اليوم الذي جرحت فيه (ميادة) نفسها وهي تقطع برتقالة في المطبخ.. وهرعت (مها) مذعورة تحاول أن تساعدها، لكن هذه ركضت إلى الحوض مرتبكة وراحت تغسل يدها من الدم.. دم؟.. لربع ثانية استطاعت (مها) أن ترى السائل المتدفق، وعرفت في قرارة نفسها انه ليس دمًا على الإطلاق.. إن لونه بنفسجي..

لم تستطع أن تصارح أحدًا بخواطرها.. إن الإجابة جاهزة: أنت هستيرية يا عزيزتي.. أما الإجابة الأسوأ فهي: أنت تحقدين على (ميادة) لأنها تفوز بكل شيء وأنت لا..

هكذا قررت أن تبتلع خواطرها وتصمت..

لكنها قررت أن تفتش حاجيات (ميادة) جيدًا..

ذهبت (ميادة) إلى كليتها في الصباح، وكان على (مها) أن تهرع إلى الإدارة لكنها قررت أن تأخذ ساعة تأخير لهذا اليوم..

وحدها في الغرفة هرعت إلى خزانة ثياب فألقت عليها نظرة خبيرة.. كانت تعرف كل ثوب وكل شيء هنا.. ثم راحت تفتش في صناديق الأوراق التي تخفي فيها (ميادة) (كنوزها) منذ الصبا.. قوقعة غريبة الشكل، وردة مجففة، بطاقة معايدة عليها قطّ جميل.. الخ..

لا شيء..

ثم هرعت إلى المكتب ففتحته وراحت تنقب..

لحظة.. هذا هو الكتاب الذي وجدته أكثر من ليلة بين يدي (ميادة).. لا يوجد كتاب آخر بهذا الحجم وهذا القطع.. مدت يدها تفتش بين أوراقه فلم تر إلا كتابًا دراسيًا مملاً يشرح هندسة الاتصالات..

لكنها في نهايته وجدت شيئًا.. تلك الرقاقة التي وجدتاها في قريتهما..

❁ ❁ ❁

ـ"ما هذا الضوء الذي توهج للحظة واحدة خلف الشجرة؟"

ـ"لا أعرف يا (مها).."

ـ"إذن تعالي نقترب.."

ـ"يخيل إلي أنه شيء هبط من السماء.. هل تعرفين كيف تهبط تلك القنابل وتنفجر في السينما؟.. أخشى أن نكتشف أنه لغم.."

ـ"كلام فارغ.. هل ترين شيئًا؟"

ـ"لا.. لكن لحظة.. هذه الرقاقة البراقة.. لا أعرف سبب وجودها في قرية كهذه.. وسط روث الماشية.. هذه هي الشيء الذي هبط من السماء.."

❁ ❁ ❁

إن الرقاقة الآن في راحتها..

لا يوجد ما ينفي أن تكون هي الشيء الذي تسهر (ميادة) تتأمله ليلاً..

تسربت حرارة جسدها إلى الرقاقة فراحت تسخن.. وتسخن.. ببطء لكن بشكل مؤكد.. إنها تتوهج بذلك الضوء البنفسجي الغريب الذي كانت تراه في الغرفة ليلاً..

انتابها الهلع فقذفت بالرقاقة لتسقط على الفراش، ثم ابتلعت ريقها وراحت تلهث..

هذه الرقاقة لعنة.. لا شك في هذا وهذه اللعنة قد مست (ميادة) فجعلتها تتغير.. لكن.. لعنة؟..

لعنة؟

غريبة هي تلك اللعنات التكنولوجية التي تشبه الدوائر المتكاملة..

ثم خطر لها شيء آخر..

(ميادة) هي التي أسرعت أولاً لترى ما سقط خلف الشجرة.. هي رأت أفلامًا كثيرة للخيال العلمي، ورأت عشرات القصص التي يتم فيها الاستبدال في لحظة.. فجأة لم تعد (ميادة) هنالك.. إما أنها صارت قشرة تضم ذلك الشيء الذي جاء من أجواز الفضاء، وإما أنها تلاشت وهو حل مكانها.. ثم خرج من وراء الشجرة ليقول: "لا.. لكن لحظة.. هذه الرقاقة البراقة.. لا أعـــ..".. الخ..

وفي هذه الحالة لابد أن الرقاقة كانت هي سفينة فضاء ذلك الكائن، أو لعلها جهاز اتصالٍ خاص به قادر على نقل كيانه إلى التعس الذي يمسك بها..

هل هذا معقول؟

غير معقول.. لكن ما يحدث لـــ (ميادة) غير معقول كذلك.. أنت تحتاج لأكثر التفسيرات سخفًا كي تفسر أكثر الظواهر غرابة..

ماذا تفعل؟.. لا تستطيع أن تقتل (ميادة) ببساطة لأن (كائنًا فضائيًا يسكن فيها).. لكن هناك حلاً أقرب إلى المنطق ولسوف تنفذه هذه الليلة..

❁ ❁ ❁

كنت أنا الطبيب النفسي الذي تولى علاج (مها)..

قلت للأب والأخت (ميادة) وأنا أخط آخر ملاحظاتي في دفتري:

ـــ"القصة بسيطة جدًا ونسمعها مئات المرات.. إن شعورها بالظلم وبأنها لا تنال ما تستحق أدّى بعقلها الهش إلى جنون اضطهاد كامل.. هكذا ولّدت هذه القصة عن أختها التي ليست أختها.. ثم هذا المشهد الدرامي الأخير.."

قال الأب وهو يرتجف:

ـــ"هل تسمح لي بالتدخين؟"

هززتُ رأسي في ضيق أن نعم، فأشعل لفافة تبغ بيد راجفة وقال:

ـ"لا أتصور ما حدث.. أصحو فِي الرابعة صباحًا لأصلي الفجر؛ فأجد (مها) واقفة فِي المطبخ تحاول حرق تلك الدائرة التي تحتفظ بها أختها لأسباب دراسية.. وحينما حاولتُ منعها راحت تصرخ في هستيريا.. تقول إن (ميادة) ليست (ميادة) وإنما قشرة يتخفى فيها كائنٌ فضائي.. لقد جاء الجيران واحتجنا إلى تقييدها لنحملها إلى المستشفى.. لكنها لم تكف عن الصراخ لحظة.."

قلت وأنا أكتم أنفاسي تفاديًا لكل هذا الدخان:

ـ"كل هذا يحدث كثيرًا جدًا.. فقط كل إنسان يعتبر حالته فريدة.."

سألني فِي لهفة:

ـ"هل أنا السبب؟.. هل تعتقد أنني فرقت في المعاملة بينهما حقًا؟"

قلت فِي برود:

ـ"يصعب علي أن أحكم ما دمت لم أر.. لكن الإحصاءات تؤكد أن هذا هو الحال لدى 80% من الآباء.. لسبب ما يظفر أحدُ الأخوة بكل شيء.. وهذا يوقع الآخرين فِي مصيدة الاحتياج للحب وانعدام الثقة بالنفس أبدًا.. أنا أؤمن أن كل مرض نفسي جاء من خطأ تربوي أو خلل وراثي.. لكن أرجو ألا يكون أوان العلاج قد فات.."

تأهب للنهوض فقلت له:

ـ"سوف تبقى هي فِي المصحة كما اتفقنا وإن كنت أفضل أن تبقى أختها معها.. هذا مهم للعلاج.."

هز رأسه موافقًا.. كان بوسعه الآن أن يوافق على أي شيء.. إن الإحساس بالذنب هذا..

مرت دقائق بعد انصرافه، و(ميادة) تجلس أمامي صامتة تعبث ببقايا لفافة التبغ التي كان أبوها يدخنها.. بعد قليل نهضت فأغلقت الباب وأضأت النور البنفسجي المريح للعين لأنه يذكرنا بوطننا..

قالت لي:

ـ"*سوهاك.. إياهواه سيبلا تنمو كوانحار شيفن كاه..*"

فقلت لها في حزم:

ـ"سوف تتكلم العربية.. كفاك ما اقترفتِ من أخطاء حتى هذه اللحظة.."

ثم سمحتُ للون البنفسجي أن يتألق فِي عيني وقلتُ لها:

ـ"كنت سريعة الخاطر عندما اقترحتِ اسمي لأعالج (مها).. إنها الآن في

قبضتنا ولن تفر ومهما تكلمت لن يصدقها أحد.. لكنك كنت بلهاء عندما سمحت لعينيك بأن تتألقا باللون البنفسجي.. حمقاء عندما رحت تخاطبينني عبر الشريحة في الظلام.. لقد كشفت عن أشياء كثيرة جدًا.."

بدا عليها الحرج في الضوء البنفسجي المريح للعينين، فقلت لها:

ـ"لقد تم تحولنا منذ شهرين.. هناك خمسة منا الآن في (مصر) وعشرون في (الولايات المتحدة) وخمسة في (فرنسا) وأربعة في (اليابان).. يجب أن نظل في دائرة الظل إلى أن يزداد عددنا أكثر فأكثر وعندها نضرب ضربتنا.. ليس قبل ذلك.. صدقيني"

❁ ❁ ❁

د. أحمد خالد توفيق
د. تامر ابراهيم



أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلي.. بنفسجي.
اليوم نحكي لك كيف أن قوس القزح قد يكون مخيفًا..
كيف تصير الألوان مرعبة أو -على أقل تقدير- ليست كما وجدت في خيالات طفولتنا..
أحمر.. برتقالي.. أصفر.. أخضر.. أزرق.. نيلي.. بنفسجي.
قوس قزح ..
وسبع قصص تحكي عن الألوان..
سبع حكايات عن قوس قزح..

الثمن في مصر:
5 جـ
الناشر: دار ليلى للنشر والتوزيع